للنساء قصص

نصوص صحفية

الكتاب: للنساء قصص - نصوص صحفية

ترجمة: عبدالكريم قاسم حرب

الناشر: دار النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

سنة النشر: 1439 هـ، 2017 م

جميع حقوق النشر محفوظة للمؤلف والناشر

النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

للنساء قصص

نصوص صحفية

ترجمة: عبدالكريم قاسم حرب

لوحة الغلاف للفنانة التشكيلية الاردنية آن الزعبي

إهـــــداء

إلى كُلِّي وبِضْعَتِي... لولاكم لَمَا وَصَلتُ

المؤلف

مقدمة المترجم

في عام 2011 صدر كتابي «نساء فوق العادة» عن دار الحوار للطباعة والنشر، واليوم أضع بين يدي القراء كتابي الجديد «للنساء قصص» ليكون الجزء الثاني والمكمل لكتابي الأول. وتحتوي صفحات هذا الكتاب 16 قصة عن نساء من مختلف الجنسيات، تتحدث كل منهن عن تجربتها الحياتية الاستثنائية بمراحلها المختلفة وتفاصيلها المثيرة. وقد تعمدت عند اختياري لهذه الباقة المنوعة الجديدة من الشخصيات النسوية، أن تكون لكل امرأة قصة مختلفة تماماً عن الأخرى.

كما أنّ أي قارئ يتصفح قصص هؤلاء النسوة سيدرك ذلك البعد الإنساني الذي استوطن ثناياها، حيث الكفاح المستمر والتحديات غير المألوفة والجهد الذي يُبذَل بسخاء من قبل صاحبة التجربة. كما أنها تنطوي على الكثير من الإثارة والغرابة والإصرار والتحدي والنجاح، وصولاً في بعض الأحيان إلى الدهشة المطلقة التي قد تصل إلى عدم التصديق، لاسيما عندما نقرأ عن مغامرة لا يجرؤ حتى الرجل على القيام بها، في حين نجد أنفسنا أمام امرأة تتقدم بحماس وتتحدى الصعاب بجدارة وتبلغ مرادها بسلام.

في صفحات هذا الكتاب سنتعرف على نساء عديدات من بينهن تلك الفتاة المراهقة التي بتر القرش ذراعها لكنها لم تتخل عن هوايتها

البحرية «ركوب الأمواج» التي تعشقها، وأبت بذراعها الوحيدة إلا أن تصبح بطلة مشهورة وملهمة للأصحاء والمعاقين على حد سواء.

وسنعيش أيضاً قصة الفتاة المشردة التي قهرت ظروفها وأثبتت أن هناك عدداً من الناس يُولدون ولديهم القدرة على إعادة اكتشاف ذواتهم، وبالتالي تغيير مسار حياتهم نحو الأفضل، فقد استطاعت هذه الفتاة انتشال نفسها من براثن الإدمان والجريمة والتشرد لتصبح واحدة من أبرز المتحدثين الملهمين في العالم، وشاركت في تقديم المحاضرات بدول العالم المختلفة إلى جانب المشاهير من الرؤساء والزعماء والقادة أمثال توني بلير وميخائيل جورباتشوف والدالاي لاما.

وسنرى كيف يتحول المستحيل إلى واقع في قصة السيدة الضريرة التي تجاوزت منتصف الخمسين من عمرها ولم تكن حتى سنوات قليلة من اتخاذها لقرار القيام بهذه الرحلة الغريبة والمثيرة قد امتطت دراجة نارية في حياتها، ولم تضع في حسبانها بعد هذا العمر أن تصبح بين النساء اللواتي سجلن أسماءهن في قائمة من سافرن حول العالم على متن دراجة نارية، وتجعل ذلك الحلم بعيد المنال حقيقة واقعة.

وقصة تلك المرأة التي عملت خبيرة للتنويم المغناطيسي لكنها رفضت الاستسلام لمحنتها العائلية والاجتماعية، بعد أن تمت إدانة زوجها وتجريمه وطلاقها منه، وما ترتب على مواجهة هذا الوضع من مشاكل عديدة، وخلال هذه الأيام القاسية من حياتها اكتشفت أنها تحب الأدب الرومانسي ولديها القدرة على الكتابة الأمر الذي شكل

منعطفاً مهماً في حياتها، ليس في تجاوزها لمشاكلها الخاصة وحسب، بل قادها للنجاح أيضاً لتصبح روائية مرموقة.

أما بالنسبة لـ «جين أوستن» البغدادية فهي أستاذة أدب إنجليزي عراقية اسمها «مي وتوت» التقت صدفة بامرأة بريطانية تعمل في الـ«بي بي سي» وطلبت منها أن تحدثها عن الحياة في العاصمة العراقية بغداد التي مزقتها الحرب أعوام 2005 و2006 و2007، الأمر الذي كان سبباً في نسج خيوط صداقة إنسانية جديرة بالاحترام، حيث نقلت «وتوت» عبر رسائل إلكترونية الأوضاع المأساوية هناك، وبسبب الدفق الإنساني الذي احتوته الرسائل المتبادلة تحولت إلى كتاب يوثق فترة مؤلمة للعراقيين وخصوصاً أكاديمييه ومثقفيه الذين كانوا لا يجدون خلاصاً سوى الانزواء في المنازل لفترات طويلة لكي يستطيعوا البقاء على قيد الحياة.

وفي قصة المجرمة التي أصبحت واعظة نتعرف على فتاة تحولت تجربتها الحياتية إلى كتاب مثير وجدير بالقراءة، تناول رحلتها مع عالم الجريمة التي انتهت بالاهتداء إلى الله واعتناق الإسلام. وتحولت هذه المرأة إلى واعظة صالحة تقدم خلاصة تجربتها من أجل عمل الخير.

في هذا الكتاب سنتعرف على نساء تحولت معظمه قصصهن إلى كتب مقروءة لاقت انتشاراً واسعاً، بفضل ما أعطته من صورة حية عن قدرات المرأة في تذليل الصعوبات وتحطيم الممنوعات وجعلها سبيلاً لتحقيق الاحلام.

مشردة وملهمة للجماهير

لا يحوي العنوان الرئيسي (مشردة وملهمة للجماهير) أي مبالغة؛ لأن ليز موراي تلك الفتاة المشردة استطاعت أن تقهر ظروفها وأثبتت القاعدة التي تقول إن هناك عدداً قليلاً من الناس يُولدون ولديهم القدرة على إعادة اكتشاف أنفسهم واستعادة حيويتهم للانطلاق من جديد في حياتهم، وتعد الذكية ليز موراي، التي كان والداها من مدمني المخدرات، واحدة من هؤلاء القلة. كان والداها ينفقان كل ما تمتلكه الأسرة من نقود على ممارسة عاداتهما السيئة، بينما كان الجوع والإهمال القاسم المشترك الأكبر لطفولتها فقد عانت هي وأختها إهمالاً غير عادي. وكثيراً ما افتقرتا إلى أبسط الاحتياجات كالغذاء والملابس.

وما إن بلغ عمر ليز الخامسة عشرة حتى وجدت نفسها كأي مشرّدة في الشوارع وليس من مأوى يقيها. لقد تُوفيت والدتها جرّاء إصابتها بمرض الإيدز، وضاع والدها في الشوارع. لكن ليز أقسمت على نفسها بعد وفاة والدتها أن تخطّ لنفسها حياة مختلفة. لقد رفضت ليز أن تكون نهايتها مثل نهاية أمّها، ورأت أن أفضل طريقة لتجنّب هذا المصير العودة إلى المدرسة والانطلاق من جديد في حياتها. ولكن كيف نجت وغيّرت حياتها رأساً على عقب؟ وكيف أنها لم تستسلم إلى ذلك الواقع المرير؟

طفولة بائسة

عندما تستعيد ليز شريط طفولتها، تجد نفسها غير محمّلة بتلك الذكريات الجميلة التي تعيشها العائلة كالعطلات الممتعة أو الأمسيات الجميلة التي يلتئم فيها شمل الأسرة في عيد الميلاد. بل إنها بدلاً من ذلك تستعيد في ذاكرتها القوية الجوع الذي عاشته أو تلك الرائحة المروّعة للشقة القذرة التي تقطنها وتُسمى منزلاً.

ربّما أن ذكرياتها سوف تُعيدها إلى ذلك النزيف الذهني والرعب حينما كانت طفلة صغيرة لا تنام الليل كله، الطفلة التي ترى أن والديها يبذلان كل ما في وسعهما من أجل الحصول على المخدرات، حيث إنهما يخرجان يجوبان الشوارع بحثاً عن ضياعهما في حين ينام بقية العالم. وبالنسبة لليز، الفتاة التي تنحدر من نيويورك، فإن طفولتها غير آمنة ولم تحظ خلالها بأي عناية على الإطلاق. وعانى والداها المدمنان من مشاكل نفسية خطيرة. وكان منزلهما، الذي يقع في قلب حي برونكس، يفتقد إلى النظام والقوانين، فمثلاً حينما يخرج الوالدان في رحلاتهما الاعتيادية للبحث عن الحشيشة، يتركان ليز وشقيقتها ليزا، التي هي أكبر منها بسنتين لوحدهما يعتنيان بنفسيهما.

وفي بعض الأحيان لا يوجد سوى القليل من الطعام في المنزل ما يدفع الفتاتين إلى أكل مكعبات الثلج ومعجون الأسنان. وكثيراً ما بقيتا لأشهر دون استحمام وكلما ازداد إدمان والديها، تتحوّل شقتهما المكوّنة من ثلاث غرف نوم إلى مكان جحيمي يعجّ بالجراثيم. وتقول

ليز، التي تتذكر طفولتها جيّداً حيث كانت تشعر في ذلك الوقت بأنها في الأربعين مع أنها في سن الالتحاق برياض الأطفال: «كنت أعرف دائماً أن أمي وأبي يتعاطيان المخدرات لكن الأمر استغرق بعض الوقت لكي أدرك أننا مختلفتان عنهما». وفي ذلك الوقت كانت مثقلة بالهموم لكن لديها شعور عالٍ بالمسؤولية نحو والديها.

عائلة مفككة

وتضيف ليز: «لقد أقدم والداي على مخاطر سخيفة وكانا لا يكترثان لحياتهما كثيراً، وعندما يخرجان ليتدبرا الحصول على المخدرات كان عليّ البقاء مستيقظة لأتأكد من أنهما لم يصابا بأذى». ومع ذلك فإن عليها أن تبقى ساكتة على ما يجري في المنزل، حيث تقول: «من الواضح تماماً أني وليزا يجري إهمالنا بشكل خطير. وعندما بدأت الالتحاق بالمدرسة، كان القمل يتساقط من رأسي بشكل متواصل على دفتر ملاحظاتي، وأدركت بشكل مؤذ للغاية أن الأطفال الآخرين يتجنبونني».

وبدأت ليز التي تشعر بالعار والعزلة تهرب من المدرسة، وعندما كانت لا تذهب إلى السرقة أو التسكّع في الشوارع، كانت تقضي معظم يومها على الأريكة تشاهد عروض الألعاب بجانب والدتها التي عادة ما تكون في حالة غيبوبة. وبسبب تعاطي المخدرات كثيراً ما دخلت والدة ليز إلى وحدة الطب النفسي القريبة، حيث لا تستطيع أن تكبح جماح نفسها، وكانت تسيطر عليها لدرجة أنها في إحدى المناسبات باعت الديك الرومي المخصّص لعشاء عيد الميلاد لتشتري المخدرات. وفي

مرّة أخرى حاولت أن تبادل معطف ليزا بكيس من الكوكايين ولكن التاجر رفض ذلك.

واللافت أنه بالرغم من محنة ليز وتغيّبها الدائم عن المدرسة وتجاربها المؤلمة عن الإدمان، لم تترك الدراسة وحين أكملت الثانوية اختارت دراسة علم النفس في جامعة هارفارد، وأصبحت اليوم محاضرة متخصّصة في تحفيز الجماهير، حيث تسافر إلى دول العالم الأخرى لتُعلّم الناس كيفية التخلّص من الظروف القاهرة.

وتمكنت من إصدار كتابها (كُسِرَ الليل) الذي سجّل مبيعات كبيرة في الولايات المتحدة، وتسرد في هذا الكتاب بشكل صريح رحلتها من الطفولة التي اقترنت بإدمان والديها المخدرات إلى دراسات إيفي ليج مروراً بمرحلة المراهقة التي قضتها في الشوارع. ومع ذلك تُصرّ ليز على أن الكتاب ليس مذكرات عن البؤس وتدّعي أنها لا تشعر بأي شيء من المرارة تجاه والديها.

وتقول ليز: «إن ما حدث قد حدث، ومن نواحٍ كثيرة لقد كنت محظوظة جدًّا. كنت أعرف دائماً كم يحبني والداي، وبغض النظر عن الحالة التي عليها أمي فهي في كل ليلة تقول لي إني بالنسبة لها شيء خاص جدًّا. أما والدي فكان يقول لي دائماً إنه يحبني أيضاً».

وعانت والدة ليز من فصام الشخصية الجزئي، فيما عانى والدها، المدمن على الكحول، بشكل خطير من اضطراب الوسواس القهري، وقد ترك دراسته الجامعية عندما اكتشف عالم المخدرات. ولأنهما كانا معاً فقد أصبح الأمل ضئيلاً لأي منهما ولكن ليز كانت تدرك دائماً

أنهما بوضع أفضل لو حاولا فعل شيء. وتعترف ليز: لقد كانت أختي ليزا تريدهما أن يكونا مثل الآباء الآخرين لكني كنت أشعر بنوع من القناعة من أن ذلك لن يحدث أبداً، ومع ذلك، ما أزال أتعلم بعض الدروس المهمة منهما.

فقــدان الأم

تضيف: امتلكت والدتي هذه الروح الرائعة التي تعتقد دائماً بأنها في يوم ما ستنبذ حياتها. في حين أن والدي يوصيني بعدم الاهتمام بما يفكر فيه أي شخص آخر، ويشجعني على قراءة الكثير وأن أعيش من خلال قواعدي، وهو بالضبط ما فعلته.

وعندما كان عمر ليز عشر سنوات وفي ليلة كانت والدتها في حالة سكر وهي تجلس على طرف سريرها أخبرت ليز بأنها تحمل فيروس نقص المناعة البشرية. وبعد خمس سنوات من تعاطي المخدرات، توفيت الأم بسبب الإيدز دون أن تكون ابنتها الشغوفة بها بجانبها، وهو أمر لازم ليز حتى يومنا هذا.

وتعترف ليز: «كلما كبرت أكثر بدأت أبعد نفسي عن مرض والدتي وأبحث عن حياتي الخاصة في الشوارع. وفي الشارع كان هناك اللعب والضحك والصداقة والمغامرة، وكل الأشياء الحلوة التي لم أتمكن من الحصول عليها في المنزل أو في المدرسة». وفي الوقت الذي توفيت فيه والدتها، كان والد ليز في ملجأ للمشرّدين فيما تعيش هي مع إحدى العوائل الصديقة لهم. وتقول ليز إنها صنعت لها عائلة جديدة

من صديقاتها في الشوارع، بما في ذلك حبيبها الأول الذي كان يمارس باستمرار دور الفتوّة عليها وكذلك التلاعب بمشاعرها. وتقول ليز: «لقد كان من السهل الإبقاء على تلك العلاقة، ومن ثم فقدان السيطرة على جميع حياتي، إلا أنني كنت أعرف جيّداً أنني لا أريد أن أنتهي إلى ما انتهى إليه والداي».

وبدلاً من ذلك، عاشت ليز في سن السابعة عشرة، بعد سنتين من تشرّدها في الشوارع، تجربة مفاجئة حيث التقت بفتاة صغيرة أخرى في حفلة مما أحدث تحوّلاً جذرياً في حياتها. لقد دفعتها للتسجيل في مدرسة ثانوية بديلة، والتي تشبه المدارس الخاصة للمحرومين.

وتقول ليز التي بدأت بالتقديم إلى المدرسة على الفور: «في تلك اللحظة أدركت أنه لا يتوجّب عليّ أن أكون ضحية لظروفي، وأنه باستطاعتي أن أغيّر حياتي على نحو صحيح بدلاً من انتظار المستقبل المجهول كما فعلت دائماً والدتي». حصلت ليز على مكان في إحدى مدارس مدينة نيويورك البديلة، وبدأت إكمال دبلوم الدراسة الثانوية على الرغم من أنها لا تملك مكاناً تعيش فيه. وتقول: «كان عليّ أن أنام في مترو الأنفاق أو أن أذاكر في السلالم، لكن الأصدقاء قدّموا لي يد المساعدة عندما استطاعوا».

النجـاح والإلهـام

برعت ليز في المدرسة ومن خلال العمل الجاد والتصميم تمكنت من الحصول على مبلغ سنوي قدره 7500 جنيه إسترليني في السنة ومقعدٍ في جامعة هارفارد وهما عبارة عن منحة تقدّمها صحيفة

نيويورك تايمز إلى الطلاب، وحصلت على هاتين المكافأتين عندما كانت بلا مأوى. ومع ذلك، تعترف ليز بأن الكلية لم تبهرها كثيراً في بعض الأحيان حيث تقول: «لقد شعرت بأنني أضع قدمي في عالمين مختلفين جدًّا، وفي بعض الأحيان كنت أرغب في أن أدعو أصدقائي القدامى للمجيء للجامعة وأن يدخلوا معي إلى المحاضرات. وأحضرت إحدى صديقاتي إلى جامعة هارفارد».

توفي والد ليز جراء مرض الإيدز بينما كانت ليز في الجامعة، وكان أسفها الوحيد هو أن والديها قد فارقا الحياة. وتخرّجت ليز في صيف عام 2009 وتعيش حالياً في نيويورك مع شريكها جيمس الذي التقت به في المدرسة الثانوية البديلة. فيما تذهب شقيقتها ليزا، التي تعمل حالياً مدرسة، إلى الكلية حيث تعيش في مكان قريب منها. ولم تلمس أي من الأختين المخدرات ويبدو أنهما خاليتان تماماً من مشاكل والديهما. وتقول ليزا: «كانت أختي ليز مصمّمة دائماً على فعل شيء وأعتقد بأنها نجحت لأنها رفضت أن يعوقها تاريخها المؤذي».

وتضيف ليز، التي تعتبر الآن واحدة من أبرز المتحدثين الملهمين في العالم، حيث شاركت في إلقاء محاضرات مع توني بلير وميخائيل غورباتشوف والدالاي لاما: «أشياء سيئة كثيرة تحدث للناس في كل وقت ولكن إن بقي الإنسان حبيساً لها ويعيش الإشفاق على الذات فإنه لن يتحرّك إلى الأمام. هذا هو أول شيء أحاول أن أوصله إلى من يسمعني، وبالإمكان أن تقدم رؤية لمستقبلك من دون أن تعتمد على ماضيك».

بـــطـلة بـذراع واحـــدة

عندما فاجأها القرش وهي تمتطي لوحها الخشبي وتصارع الأمواج العاتية، في عرض البحر لم تكن تتوقع على الإطلاق تلك الشابة التي لم تكمل ربيعها الرابع عشر أنها ستبقى على قيد الحياة. وقطعاً إن كل شخص سيعتقد أن أجلها قد حان. ولكن كان ثمة بقية يخبئها القدر للفتاة «بيتاني هاملتون»، فقد كتبت لها حياة جديدة. وحتى بعد فقدانها لذراعها، وهي الإصابة التي يفترض أن تجعلها تتخلى عن ركوب الأمواج، لم تستسلم بيتاني، بل أصرت على أن تتعافى وتعود إلى الرياضة التي تعشقها.

ومع أن الحادث كان قد تسبب لها بإعاقة جسدية تتعارض مع الرياضة التي تمارسها إلا أنها واصلت مشوار التحدي فلم تتخلّ عن تحقيق طموحاتها في أن تصبح بطلة في رياضتها المفضلة. وبعد أن اشتهرت وذاع صيتها في كل مكان ألهمت قصتها صناع السينما ليقدموها في فيلم تناول حجم التحدي والطموح الذي تمتلكه هذه الشابة. ومازالت حتى اليوم يملؤها الإصرار على مواصلة مشوارها كبطلة في عالم ركوب الأمواج.

لقد ولدت بيتاني وكأنها خلقت لتكون راكبة أمواج، فقد انتقل والداها إلى هاواي حتى تكون العائلة قريبة جداً من البحر. وكانت

تمتلك موهبة طبيعية بحكم أن منزل العائلة دائماً ما يكون قريباً من البحر، ولكونها بدأت في سن مبكرة بممارسة الرياضات البحرية فقط تآلفت مع البحر الذي تحولت إلى عاشقة لأمواجه بحيث إنه على الرغم من تعرضها لهجوم القرش إلا أن بيتاني لم تتوقف سوى فترة وجيزة لم تتجاوز سوى أسابيع، وعادت تاركة الخوف من القرش خلف ظهرها لتنزل من جديد إلى البحر كونها تدرك جيداً أنها لا تستطيع أن تكون بعيدة عنه أبداً.

بحـر ودمـاء

في ذلك الصباح الذي تغيرت فيه حياة بيتاني إلى الأبد، أي في يوم الحادثة، كان كل شيء رائعاً للنزول إلى عرض البحر. ويبدو أن جمالية الأجواء أغرت الفتاة المراهقة التي ولدت في الثامن من فبراير ١٩٩٠ والمتدفقة حيوية إلى أن تصعد على اللوح الخشبي وتحرك ذراعها إلى الجانب وهي متلهفة إلى أن تمضي نحو زرقة الأعماق في شواطئ هاواي.

كان الوقت صباحاً، والبحر هادئاً تقريباً، وما إن نزلت قليلا في أعماق مياه البحر باغتها فجأة قرش رمادي اللون من الجانب الأيسر من لوح التزلج. ويبدو أن هجوم القرش الشرس الذي كان من نوع النمر (وهو من الأحجام الضخمة جدًّا التي يصل حجمها إلى ١٥ قدماً) لم ينته إلا بفقدان بيتاني لذراعها اليسرى، ومن تحت الكتف تحديداً.

لم ترتعب بسبب الهجوم والإصابة بل تصرفت المراهقة بيتاني في غاية الهدوء بحيث وصفت طريقة إنقاذها فيما بعد بأنها «عملية

سحب». لقد نادت بيتاني على صديقتها المفضلة «آلان» التي كانت على مسافة بضع ياردات منها، وقالت لها بهدوء: لقد هاجمني قرش. وحالما اصطبغ لون مياه البحر بلون الدم هرعت مجموعة صغيرة من راكبي الأمواج لإنقاذ بيتاني، حيث كانوا أيضا يمارسون رياضتهم في ذلك الصباح. وقد هُرعوا جميعاً نحو الفتاة التي لا يعرفون أين أصيبت في أول الأمر لكنهم يريدون فقط إعادتها إلى الشاطئ؛ كما قام والد صديقتها «آلان» الذي كان برفقتهم أيضاً بربط الكم الطويل لفانيلته التي كان يرتديها حول مكان القطع في ذراع بيتاني ليحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

وبعد بلوغ بيتاني إلى الشاطئ كانت قد فقدت وعيها، حيث نقلت إلى المستشفى فوراً لأنها كانت قد فقدت حوالي ٦٠٪ من دمها. وعندما استعادت وعيها، وصف الطبيب إمكانية بقائها على قيد الحياة بالمعجزة. وقد حاول أحد المنقذين البحث عن ذراعها لكنه لم يعثر عليه نهائياً.

قصـة مثيـرة

وانتشرت قصة بيتاني في عموم أنحاء العالم، كما يحصل دائماً مع الضحايا ممن تتم مهاجمتهم من قبل القرش، وبدلاً من أن تكون حادثة الأربع والعشرين ساعة التي سرعان ما تنسى، تحولت قصة المراهقة ذات الثلاثة عشر ربيعاً والشعر الأصفر الطويل والطلة الجميلة جداً إلى عمل أدبي أولاً، ومن ثم إلى فيلم سينمائي ناجح. وقد تم عرض فيلمها الذي حمل عنوان: «روح راكبة الأمواج» الذي كان من إخراج شون مكنمارا وبطولة كل من آنا صوفيا روب بدور(بيتاني هاميلتون)

ودنيس كوايد وهيلين هانت. وفي الفيلم الذي اقتبس القصة الحقيقية لبيتاني كانت البطلة فيه شابة هاوية راكبة أمواج تمكنت من تحدي إعاقتها واستدعاء شجاعتها للعودة إلى المحيط بعد فقدانها لإحدى ذراعيها في هجوم من قرش.

وتتغلب تلك الشابة اليافعة على كل الصعاب بشجاعة لتصبح بطلة مرة أخرى من خلال إصرارها المطلق وإيمانها الذي لا يتزعزع بنفسها. وفي أعقاب الحدث الذي كان يمكن أن يحولها إلى إنسانة سلبية ويغير كل شيء في مجرى حياتها تقريباً دفعها عزمها وإصرارها وإيمانها القوي نحو العودة إلى الحياة والمغامرة إلى تحويل فقدانها لجزء مهم من جسدها إلى تحدٍّ جديد.

ابنــة البحـر

لقد ولدت بيتاني لتكون راكبة أمواج وتمتلك موهبة طبيعية بالنسبة للذين خرجوا إلى الأمواج في سن مبكرة وكانت قيادتها المثالية دليلاً على أنها راكبة أمواج تشبعت بالشمس، حيث كانت تعيش على ساحل هاواي. وكانت تتنافس في معظم المسابقات الوطنية قبل أن يتغير كل شيء في رمشة عين. نعم كانت على موعد غير سار في ذلك الصباح، كانت بيتاني في نزهة محيط نموذجية عندما حطم القرش كل أحلامها.

ويكشف الفيلم كما هي القصة الحقيقية أن بيتاني حاربت وكافحت من أجل التعافي، من أجل أن تذهب نحو تحقيق طموحاتها المستقبلية وكان وراء ذلك أيضاً حب والديها لأنها أبهرتهما بقدرتها على رفض الاستسلام أو التخلي وتبدأ العودة بجرأة إلى المكان الذي تحبه «البحر

والماء»، حيث أصبحت من بين أفضل 25 راكبة أمواج محترفة في العالم. وعلى الرغم من أنها بذراع واحدة، فقد كانت تقوم بالدفع بها والتجديف والتوازن أيضاً.

وتتحدث بيتاني بفخر عن عزيمتها وكيف أنها استطاعت بعد أسابيع من هجوم القرش العودة من جديد إلى لوحها الخشبي وتستذكر كيف أنها عادت من بعيد إلى عشقها الأول قائلة: كنت على شاطئ البحر أراقب صديقاتي وأصدقائي وهم يركبون البحر بألواحهم الخشبية، وكانت الأمواج جميلة ورائقة ومن ثم ناديت على والدَيّ وقلت لهما: هل بإمكانكما أن تجلبا لي اللوح؟ أريد النزول إلى البحر لركوب الأمواج. وبدت علامات التعجب على والدَيّ لكنهما ذهبا وجلبا اللوح، وكانت لحظات صعبة لكن بسبب وجود معظم أصدقائي نزلنا سويا وبدأنا بركوب الأمواج. وبدا كل شيء استثنائياً ولكن وأنا أشاهد الفيلم شعرت أن الصورة تقع في مكانها الحقيقي.

ويذكر أن بيتاني هي ابنة والدَين من كاليفورنيا عاشقين لركوب الأمواج انتقلا إلى هاواي رغبة منهما في العيش بقرب البحر والأمواج. وقد ربى الأبوان (توم وتشيري) أطفالهما الثلاثة في بيت يقع بالقرب من الشاطئ بحيث إن رياضة ركوب الأمواج مدت جذورها في صميم يوميات حياة العائلة. وفي الفيلم يظهر الزوجان وهما يتنافسان مع بعضهما البعض فيما يلهو الأبناء على رمال الشاطئ وهم يتابعون أداء والديهم.

وتقول بيتاني: لقد ركبت على لوح ركوب الأمواج قبل أن أبدأ بالمشي وأنا ما زلت طفلة رضيعة. كنت في حالة عشق للمحيط وأشعر كما لو أنه ساحة لعبي الحقيقية. وعما إذا شعرت بالخوف عندما أرادت العودة

لركوب الأمواج بسبب مهاجمة القرش لها أجابت بيتاني: بالتأكيد كنت خائفة ولكن ما هو أكثر خوفاً بالنسبة لي هو أنني قد لا أركب الأمواج من جديد بعد اليوم. ومع بدئي بركوب الأمواج في أماكن محددة كنت أخاف، لكن مع مرور الوقت نسيت الحادثة والخوف، ولم أعد حتى أفكر بالقرش أبداً. كما أني منذ فترة قليلة شاهدت القرش لكن حجمه كان ثلاث أقدام فقط. وبدا كما لو أنه سمكة.

العـودة للماضي

عادت بيتاني عدة مرات إلى المكان الذي وقعت فيه حادثة بتر ذراعها وحتى عندما تتابع مشاهد الهجوم في الفيلم فإنها لا ترى أنه المشهد المفضل لديها، لكنها ترى أنها تعافت تماماً من التجربة هذه. ويذكر أنه بعد الحادثة قد تم تركيب ذراع صناعية من السيليكون والغرافيت متدلية من موضع ذراعها اليسرى التي بترت. وبدت الذراع التي بلغت تكلفتها 45 ألف دولار شديدة الشبه بذراعها الحقيقية بحيث إن هناك أوساخاً متجمعة تحت «أظفار الأصابع» وفي وقتها علقت بيتاني قائلة: «إن هذا شيء طيب» ومع ذلك فهي ليست مرتاحة تماماً مع طرفها الصناعي التكميلية والذي يعد إلى حد بعيد عضواً تجميلياً أكثر من كونه عضواً تعويضياً (لأن بيتاني لا تستطيع تحريكه إلا عن طريق يدها الأخرى)، كما أنه يبدو باهتاً شاحب اللون عند مقارنته بذراعها الأصلية، لكن الأهم بالنسبة لها هو قدرتها على ركوب الأمواج كما لو أن ذراعها لم يبترها قرش.

الـمـمـثـلة الـصـماء

عندما كانت «جينيفيف بار» طفلة صغيرة قيل لها أنها لن تكون قادرة على الكلام أو الذهاب إلى المدرسة الاعتيادية لكونها فتاة صماء. ولكنها حين استطاعت أن تثبت العكس أصبح لديها شعور عظيم بالفخر، لاسيما عندما شاهدت نفسها وهي تؤدي الدور الرئيسي في دراما تلفزيونية بعنوان «The Fades» قدمها تلفزيون البي بي سي. واللافت كان ذلك الظهور الأول لها كفتاة تسمع وتنطق، حيث إنها لعبت أدواراً تمثيلية قليلة من قبل قدمت فيها دور الفتاة الصماء.

وتتحدّث «جينيفيف بار» عن نشأتها في عائلة ليس لديها أي مشكلة مع السمع والنطق. وتشير إلى معاناتها غير المتوقعة، وكيف أنها استطاعت قهر عاهتها رغم كل الظروف المحيطة بها بفضل مساعدة أهلها وإصرارها إضافة إلى استخدامها الوسائل السمعية المساعدة. وتصنف «جينيفيف بار» ضمن الممثلات المحترفات وأصبحت أدوارها حديث الشارع البريطاني.

ولدت «جينيفيف» صماء، لذا كانت في طفولتها، حينما تغني أمها لها بعض الكلمات، تراقب «جينيفيف» شفتي والدتها ومن ثم تحاول نطق الكلمات مرة أخرى. وفي سن الرابعة تم تزويدها بأول مساعدات سمعية لتكون قادرة على أن تحاكي أنماط الفم التي تراها بالعين المجردة إلى الأصوات التي باتت تسمعها الآن، ومع أن ذلك كان بشكل بطيء وتدريجي فقد بدأت بالتحدث بصوت مسموع.

قهر الإعاقة

ما زالت «جينيفيف» إلى الآن تستخدم مساعدات السمع ولكن لأنها لا تستطيع سماع كل التفاصيل فهي تعتمد على قراءة الشفاه حتى تكتمل الصورة لديها. وتقول «جينيفيف»: كنت دائما سعيدة بسماعي العالم وشعرت بتقبل لهذه المساعدات لأنني أصبحت الإنسانة التي أريد، وكان التحدي بالنسبة لي أن أؤدي دوراً يخص شخصاً أصم يبدو أنه يفضل صمت العالم.

ومن خلال خليط من التصميم الشديد، والتقدم في علاج النطق والتطورات في تكنولوجيا مساعدات السمع أصبحت «جينيفيف» ممثلة محترفة. ونالت بالفعل الإشادة لأدائها أدوار الشخصيات الصماء، ولكن «جينيفيف» تفكر الآن في الذهاب إلى مجموعة من الخيارات الواسعة الأخرى، كالظهور في دور بمسلسل الرعب التلفزيوني (The Fades)، وهو أول دور تؤدي فيه شخصية غير صماء.

دعم الأسرة

بالعودة إلى حالتها السمعية فإنه لم يتم تشخيص صممها في الحقيقة إلا بعد أن تجاوزت السنتين من عمرها. وتقول «جينيفيف»: كنت طفلة مبتسمة حقا واعتدت تلفظ الكلمات لأنني كنت أجيد قراءة الشفاه، وحينما اجتزت اختبارات السمع كان ذلك المفاجأة الحقيقية لأهلي.

وعلى الرغم من التوصيات بوجوب أن تذهب «جينيفيف» إلى مدرسة للأطفال الصم، حيث تستطيع أن تتعلم لغة الإشارة، فقد

أصرت أسرتها على ذهابها إلى المدرسة الابتدائية المحلية. ومن هنا بدأت رحلة علاج مكثفة في النطق وبدأت باستخدام مساعدات السمع وهي في الرابعة من عمرها. و في تلك الأيام لم يكن عمل أجهزة السمع أكثر من تضخيم الصوت ولكن مع تعلم «جينيفيف» القدرة على الكلام، بشق الأنفس وبمساعدة والدتها «كارولين» استطاعت أن تفهم كيف تتشكل الكلمات.

تتذكر «جينيفيف» وهي من هاروغيت، شمال يوركشاير في بريطانيا مساعدة أمها لها في تجاوز معاناتها بالقول: اعتادت أن تستخدم البالون لتجعلني أتحدث فيه حتى أشعر بالاهتزازات عند نطق الكلمات، وكانت تضع يدي على حبالها الصوتية عندما كانت تتحدث.

وتضيف: تعلمت الكلمات من خلال القراءة ولكنها كانت تتشكل أمامي كما تبدو في الصفحة ولم أكن دائماً ألفظها على نحو سليم. نشأت وجميع الناس من حولي لا يشكون من مشاكل في السمع، لكنني لم أعتبر نفسي مختلفة عنهم. وبالنسبة لي كان ما يوازي ارتدائي لأجهزة السمع هو ارتداء الآخرين للنظارات، لكنني أتذكر شعوري بالإحباط لأنني لا أستطيع الانضمام إلى فرقة الغناء في المدرسة. وبسبب صممها لا تزال «جينيفيف» لا تستطيع الغناء لكنه لم يكن العائق الوحيد في مسألة غنائها.

عشق التمثيل

تقول «جينيفيف»: كنت أحب التمثيل وكانت أستاذتي تضعني دائماً في الأمام وتختارني للقيام بأدوار رئيسية في المسرحيات التي نقدمها في المدرسة. وكنت أنفق الكثير من الوقت في تحليل الشخصية وأقوم

بالبحث عنها. ولكن بعد ذلك تتحطم ثقتي بسبب الرفض المهين الذي يحدث في كل عام، والذي يزداد سوءاً مع حقيقة أن الإعلان عن ذلك يتم دائماً في التجمعات. وكنت ألقي باللوم على عاهتي لاعتقادي أن كلامي لم يكن واضحاً بما فيه الكفاية.

وعندما أصبح عمر «جينيفيف» 17 عاماً تحولت حياتها من خلال إدخال مساعدات الاستماع الرقمية التي تحجب الضوضاء الخلفية وكذلك قدرتها على كشف أكبر مجموعة من الترددات. بالإضافة إلى ذلك أصبح بإمكانها أن تميز بين الأصوات الصاخبة والهادئة بدلاً من المبالغة بفجاجة في كل أنواع الضوضاء. وكانت أحدث الموديلات الرقمية تعمل بالتعديل الذاتي وبالاعتماد على المحيط، سواء كان ذلك في حانة صاخبة، أو عند الجلوس في المنزل لمشاهدة التلفزيون.

وتقول «جينيفيف» التي ذهبت إلى الجامعة في أدنبره: لقد كانت هذه التطورات تعني تغييراً كبيراً في هذا المجال؛ لأن هناك الكثير من الأصوات الجديدة التي أخذت تعالجها. وفي البداية كان كل شيء يبدو أكثر هدوء ولكن مساعدات السمع الرقمية ساعدتني حقاً في الكلام. في الماضي كنت أكثر وعياً بالضوضاء الموجودة في الخلفية، وكان من الصعب سماع شخص يتحدث إذا تحدث الناس الآخرون في مكان قريب.

تكنولوجيا الأجهزة المساعدة

لقد تحسنت تكنولوجيا مساعدات السمع بسرعة لكن «جينيفيف» ظلت تواجه مشاكل أثناء الدراسة في المدرسة الثانوية قبل بضع سنوات من أن تصبح ممثلة. وتوضح قائلة: «كان الصمم عندي الشيء

الواضح بالنسبة لبعض التلاميذ الذين سرعان ما يلتقطونه. ويبدأون بالشتم والسب ما إن يبتعدوا قليلاً عني ومن ثم يتهكمون وهم يرقصون عند طاولاتهم. وكنت أسمع كل هذا ولكن جهاز مساعدة السمع لم يعطني اتجاه الصوت».

وقد بدأت «جينيفيف» باستخدام نموذج جهاز يركز على الترددات العالية للكلام، وعادة هو الأصعب بالنسبة للأشخاص الصم بشكل شديد. كما أن الجهاز قادر على التقاط الأصوات المفردة في غرفة مزدحمة وكذلك يزيل التغذية الاسترجاعية، وهي المشكلة التي غالبا ما واجهت أجهزة السمع. وتقول «جينيفيف» التي أصبحت ممثلة، وتعيش في شمال لندن: أصبحت أسمع الأصوات وهي أكثر دقة ووضوحاً في الوقت الحالي.

لقد حصلت «جينيفيف» على أول دور رئيسي لها في الدراما التي قدمتها البي بي سي وحملت عنوان «الصمت»، وهو مسلسل لعبت فيه دور الفتاة الصماء، لكنها تقول: «دوري في دراما «التلاشي» كان أول ظهور لي كشخصية تسمع وتتحدث، لذلك فإنها فرصة رائعة بالنسبة لي لأثبت كيف تحسن صوتي على مدى العام الماضي، وكذلك قدراتي كممثلة. كما أنني لا أرغب في الحصول على أداء متكرر كمن يلعب فقط شخصية الأصم».

قراءة الشفاه

وعلى الرغم من أن التقدم في أجهزة التكنولوجيا الرقمية غير قادر على استعادة السمع الكامل، لكن «جينيفيف» لا تزال تعتمد على قراءة

الشفاه وتناضل من أجل استخدام الهاتف والتحدث به. وبدلاً من الاعتماد على التلقين الشفهي عندما تقوم بأداء أدوارها التمثيلية فإنها تعمل على ضمان معرفة السيناريو بالكامل بحيث إنها لا تغفل أي إشارة.

وتقول أنجيلا كينغ، وهي من كبار المتخصصين في السمعيات من خلال بحثها الذي يحمل عنوان «العمل مع فقدان السمع»: «حتى الناس الذين يعانون من الصمم العميق فإن لديهم بقايا سمع، وإن الأجهزة الحديثة تقوم بتكبير هذه القدرة المحدودة جدا. ومقارنة مع نماذج الأجهزة السابقة فإنه بالإمكان برمجتها بالاعتماد على شدة ونوع فقدان السمع على وجه التحديد. ولكن هناك دائماً حدوداً لما يمكن أن يتحقق».

إن السبب في فقدان السمع هو تلف الخلايا الحسية في الأذن الداخلية التي ترسل الرسائل إلى الدماغ عندما يتم الكشف عن الصوت. وهناك خيار آخر للتغلب على ذلك هو زرع القوقعة التي تعمل بطريقة مختلفة عن طريق تجاوز المنطقة المتضررة. أما تعلم الكلام فهو أكثر صعوبة بالنسبة للأشخاص الذين يولدون صُماً أكثر من أولئك الذين يفقدون السمع في وقت لاحق من الحياة.

وعلى الرغم من التقدم في وسائل السمع الرقمية ما زالت هناك أصوات لا تسمعها «جينيفيف»، حيث إن علاج النطق هو الذي يساعد هنا. ويهدف علاج النطق إلى أن يساعد «جينيفيف» في أن تعيد في فمها خلق الصوت الذي لا تستطيع أن تسمعه.

الكلام وليس السمع

وتقول «جينيفيف»: بأمانة، مستقبلي كممثلة غير مستقر بعد دراما (الصمت)، وعلى الرغم من أنني صماء، تبقى القضية الرئيسية التي تشكل عائقاً بالنسبة لي هي الكلام وليس السمع. إنها تتعلق بفهم الناس لما أقول. أدرك جيداً أن كلامي ليس فيه الوضوح المثالي حتى الآن، ما يعني أن هناك بعض الناس يخشون أن يقدموا لي الأدوار. وعموما يجب ألا يكون التمثيل حول كيفية قول الشيء وإنما يجب أن يكون حول ما يقال.

وتضيف «جينيفيف»: إن تقليد اللهجات الإقليمية يشكل تحدياً آخر بالنسبة لها، وهذا ما أعمل عليه الآن. وخلال دراستي في الجامعة أصبحت قادرة على تمييز اللهجة الاسكتلندية. والجدير بالذكر أن «جينيفيف» الآن سفيرة مبادرة «اسمع أيها العالم»، وهي المبادرة التي تهدف إلى رفع مستوى الوعي حول قضايا السمع العالمية.

***

خبيرة تنويم مغناطيسي روائية

شكل اكتشاف آناليز بلورايت لحقيقة كونها تحب الأدب الرومانسي منعطفاً مهماً في حياتها لاجتياز محنتها العائلية والاجتماعية، لقد جاءت الكتابة لتمثل طوق نجاة ليس للهروب من مشاكلها وحسب بل والنجاح أيضاً، عاشت هذه المرأة عدة مشاكل في آن واحد، أولها انتهاء زواجها بالطلاق وما يترتب على ذلك من خوف وقلق بشأن سلامة عائلتها بعد أن تمت إدانة زوجها وتجريمه من قبل المحكمة، والسبب الأخير كان عليها مواجهة مشاكلها المالية وإعلان إفلاسها. ومع ذلك كتبت آناليز روايتها الأولى «الوحيد» خلال هذه الفترة العصيبة من حياتها.

وبدلًا من أن تبقى آناليز، التي تحمل شهادة الدبلوم العالي في التنويم المغناطيسي المتقدم والسريري، يقظة طوال الليل ومستغرقة بأفكارها ومشاكلها استطاعت انتشال نفسها، ورفضت الاستسلام للقلق ولأفكارها السوداوية التي لازمتها بعد أن عرفت أن زوجها متورط بتهمة التخطيط لجريمة قتل. وفي البداية قررت الانتقال إلى قرية كليرمونت في أسكتلندا، ومن هناك اتجهت إلى الكتابة على ضوء شمعة بسبب ظروفها المالية القاهرة. ويبدو أن دراستها للتنويم المغناطيسي منحتها الثقة والإيمان بالنفس لتحقيق حلمها في أن تصبح كاتبة.

وتقول آناليز بهذا الصدد: إن التنويم المغناطيسي يفتح عيوننا على إمكاناتنا التي لا حدود لها كبشر، فهو يمنحنا الرؤى، والإيمان بالنفس، وقبل كل شيء يجعلنا لا نستسلم أبداً!.

ولدت آناليز في تورورو في كورنوال في المملكة المتحدة عام 1976 وهاجرت مع عائلتها إلى مدينة بيرث في غرب أستراليا وهي في الخامسة من العمر. وعندما أصبحت شابة يافعة انتقلت مرة أخرى إلى المملكة المتحدة حيث تعيش اليوم مع ابنها الصغير جاك. وبعد ما حققته بدأت آناليز بكتابة روايتها الثانية «في الظلام» وهي الجزء الثاني المتمم لروايتها الأولى «الوحيد».

الكتابة على ضوء الشمعة

في تلك الأيام الكئيبة كانت آناليز تجلس أمام جهاز الكمبيوتر، ولا يضيء المكان إلا شمعة قريبة منها شاعرة بالإرهاق التام والتوتر، ولم تجد مفراً من الهروب من واقعها إلا بالتسلل إلى عالم الخيال الذي صنعته حينما بدأت تكتب روايتها الأولى. أدركت آناليز أنها أصبحت امرأة «عزباء» فهي بلا زوج بعد أن طُلقت، وتعيش حالة خوف على حياتها ويحاصرها محصلو الديون والالتزامات، وواجهت ابنة السادسة والثلاثين عامًا اليقين من أنها ستخسر بيتها وكل ما تملكه. لكنها تعودت على الكتابة في كل ليلة بعد أن تضع ابنها جاك، الذي عمره سنتان في السرير، والذي أصبح بالنسبة لها المتنفس الوحيد من كابوس فاجأها بغتة.

وتقول آناليز وهي تضحك من ظروفها القاسية جداً: « كنت أوفر شيئًا من المال من خلال ادخار صرفيات الكهرباء عن طريق الكتابة

على ضوء الشموع، لقد فكرت من قبل في محاولة الكتابة ولكن لم تكن عندي الثقة بأنني سأوفق. ومع ذلك، وبسبب قسوة ظروفي وجدت نفسي مضطرة للبدء وأعتقد أني نجحت».

خلال الأشهر الثلاثة الأولى فقط من عام 2008 وتحديدًا في أبريل وجدت آناليز أن حياتها قد تغيرت بشكل كبير. فبعد ثلاث سنوات من الزواج، انفصلت عن زوجها مارتن بلاك وأصبحت أمًا عزباء تعيش وحيدة. وكان الزوجان (آناليز ومارتن) قد اقترنا في عام 2000 عندما كانت تعمل سكرتيرة له، وفي عام 2004 تقدم لخطبتها مارتن بشكل رسمي عندما كانا يسيران معاً في حديقة قريبة من أطراف العاصمة الاسكتلندية.

وتقول آناليز: كان في البداية رومانسيًا جدًا ومفعمًا بالحيوية وحتى عندما أصبحنا عائلة، ولكن فيما بعد بدأ يقضي أوقاتًا أقل معي، وخاصة بعد ولادة ابننا، علمًا أنه لم تكن هناك أية خلافات كبيرة بيننا أو أية مشاجرات. وأخذ البعد ينمو بيننا شيئًا فشيئًا، فقد كان عمله مستشاراً مالياً يأتي في المرتبة الأولى، وعائلته في المرتبة الثانية ولكن بفارق كبير. وبعد أن حصل الانفصال بينهما واصل مارتن «36 عامًا»، دعم مطلقته وابنه على الرغم من أنه كان قليل الاتصال بهما. وفي المرات القليلة التي رأت فيها مارتن لاحظت أن تغييرًا ما قد طرأ عليه.

جفاء وجريمة

تقول آناليز: «كان قلقًا ومنفعلًا. وقال لي إنه يعتقد أن شخصًا ما يحاول الإيقاع به. ولم آخذ ما قاله على محمل الجد. واعتقدت أنه قلق فقط بشأن عمله في ظل المناخ الاقتصادي المتعثر». ثم في أوائل يوليو

من عام 2008 فشل في المجيء إلى زيارة ابننا جاك. وحاولت الاتصال به ولكن لم أحصل على جواب. وشعرت بالغضب حقًا ولكن بعد يومين بدأت أقلق. وفي نهاية المطاف اتصل أحد الأصدقاء بآنااليز لتكتشف الحقيقة. لقد قُبض على مارتن ووجِّهت إليه تهمة التخطيط لجريمة قتل مع قاتل معروف من العصابات الإجرامية يدعى فرانك دوريس. وكان مارتن قد استأجر فرانك لقتل رجل أعمال اسمه كيفن بسبب ديون معلقة من صفقة تجارية قدرت بـ 100 ألف جنيه إسترليني. وعلى أية حال يبدو أن الرجال تباهوا بخططهم أمام صديقة فرانك، والتي بدورها أبلغت الشرطة. وحينما اقتحمت الشرطة شقة مارتن اكتشفت فيها ترسانة من الأسلحة، من ضمنها بندقية وسيف، وقوس نشاب وسكين.

وتقول آنااليز: لقد سقط الهاتف من يدي من هول ما سمعت وتسبب الخبر بحالة من الصدمة شلت حركتي. كان ما أسمعه سرياليًا، وكأنه نوع من الأخبار التي نقرأها في الصحف فقط، والشيء التالي الذي عرفته أن الشرطة موجودة عند الباب لمقابلتها بشأن مارتن. وتضيف آنااليز: لم أستطع أن أصدق ما يحدث، كان مارتن شخصية قوية ولكن لم يكن لدي أدنى فكرة من أنه يمكن أن يُشارك في التخطيط لقتل شخص ما. وعندما استوعبت واقع حال القضية أدركت آنااليز تداعياتها عليها وعلى ابنها جاك.

وتضيف: لقد أخبرني رجال الشرطة أن مارتن قلق على سلامة عائلته وهو ما جعلني أفقد السيطرة على نفسي، حيث تساءلت: هل من خطر كان يحدق بنا من بلطجية العالم السفلي؟.

هروب ومشاكل مالية

تقول: في تلك الليلة استحوذ عليّ الرعب بحيث بقيت يقظة. وكان كل صوت يصدر في المنزل يجعلني أقفز من مكاني. ونتيجة للخوف على حياتها وحياة ابنها جاك انتقلت إلى موفات في شمال دومفريس، لتمكث مع والديها. وبقيا هناك لمدة ثلاثة أسابيع لكنها كانت تدرك أنهما يجب أن يعودا إلى المنزل وأن يواصلا حياتهما. وبالفعل عادت مرة أخرى إلى منزلها في ادنبره، ومن ثم ذهبت آناليز لتزور هي وابنها جاك زوجها مارتن والموقوف في السجن على ذمة الحبس الاحتياطي. وهناك سألته عن الكيفية التي أوصلته إلى مثل هذه الفوضى لكنه احتج ونفى التهم الموجهة إليه وقال إنه براء مما هو منسوب إليه.

وفي هذا الوقت بدأت آناليز تعاني ماليًا. ومع أنه لم يكن لديها ديون شخصية ولكن اسمها قد أقحم في اثنين من ممتلكات مارتن التي كان قد اشتراهما، وكذلك المنزل الذي يسكنونه.

وتقول آناليز: «لقد توقفت الأموال عنا ولم يكن بمقدوري أن أرتب عملية دفع أقساط الرهن العقاري. وكذلك لم أستطع دفع المبالغ المستحقة على السيارة. وقد بلغ الحال إلى قدر من السوء بحيث أصبحت لا أستطيع أن أدفع حتى أجور الغاز والكهرباء».

وبعد شهرين بدأ محصلو الديون يقرعون بابها مطالبين بالمبالغ المستحقة عليها. وأصبح مشهدهم حالة تتكرر يوميًا. وشعرت بأنها مكبلة بأعباء كثيرة. وكان صوتها يرتجف عندما تحاول شرح موقفها من خلال الباب الموصد بالسلاسل.

كان البعض منهم عطوفًا جدًا لكن الأمر يسبب حرجًا كبيرًا لآناليز لأن الجيران يشاهدون ويسمعون تلك الهموم والأعباء الثقيلة التي تحملتها فجأة. وفي بعض الأحيان تتظاهر بأنها غير موجودة في المنزل. وتحاول أن تبتعد عن الأنظار التي قد تتلصص عليها من النافذة. وفي نهاية المطاف تم استرجاع ملكية المنزل في أغسطس 2009 وانتقلت آناليز وابنها جاك إلى شقة صغيرة مستأجرة. ونتيجة لما آلت إليه ظروفها نصحها محاسبها بأن تُعلن الإفلاس بشكل رسمي. ولم تكن لديها أي وسيلة تمكنها من دفع الديون المترتبة. لقد شعرت بالضيق والإحباط ولكن لم يكن هناك خيار آخر أمامها سوى إعلان الإفلاس.

التحول إلى الكتابة والنجاح

وخلال أيامها السوداء الكئيبة، بدأت أحلام اليقظة تتكرر على نحو يومي على آناليز، فتقول: «ظللت أرى ذلك المشهد في رأسي عن امرأة شابة تقود سيارتها في جو ممطر فيما تكون جميع ممتلكاتها معها في السيارة. كانت تلك المرأة تهرب من زوجها، ومن حياتها كلها. واندمجت مع تفاصيلها، لأنني كنت أرغب في أن أهرب من كل ذلك أيضًا».

وربما من هنا بدأت نقطة التحول في حياة آناليز حيث تقول: «لقد بدأت في بناء قصة حول هذه الشخصية من خلال مشهد تلو مشهد. وقبل ذلك بفترة طويلة كنت أدوّن بعض الخربشات والملاحظات حيث بدأت أحولها إلى مشاهد ومن ثم إلى صورة أكبر، وكل ليلة، أكتب على ضوء الشموع من أجل أن أدخر في نفقات الكهرباء وأعود

إلى روايتي لأبحث عن سلامة شخصياتي التي ابتدعتها. وكانت أشبه بالحالة العلاجية، حيث كنت أهرب من واقعي المأزوم. ومع مواصلتي للكتابة شعرت بأني متحمسة حقًا، وشعرت للمرة الأولى في حياتي أن هناك ما هو جيد فيها. وقد منحني ذلك قدرًا من التفاؤل لأنه يأخذني بعيدًا عن الوضع الذي لم يكن لدي أي سيطرة عليه».

وأخيراً حكم على زوجها مارتن بالسجن لمدة ثماني سنوات بتهمة التخطيط لارتكاب جريمة قتل، وكذلك بتهم امتلاك عدد من الأسلحة النارية. ومنذ ذلك الحين لم يكن له أي اتصال بآناليز أو ابنه جاك. وتقول آناليز: «لا يهمني إذا لم أسمع منه أو عنه مرة أخرى أي شيء، فهو لم يكن يومًا على اتصال بنا من أجل أن يقدم الاعتذار، ولم يكلف نفسه حتى ليعرف كيف نتعامل مع الحياة. وأجد أنه من الصعب عليّ أن أفكر بأنني سوف أغفر له يوماً ما».

وكان ابنها جاك صغيرًا جدًا بحيث لم يكن يعرف ما يجري في ذلك الوقت ولكنه أصبح فتى وبدأ بطرح الأسئلة عن غياب والده. وهنا تتساءل عن تلك المشكلة الجديدة التي بدأت تواجهها حيث تقول: «كيف يمكن أن تفسر لابنك من أن والده في السجن لمحاولته القيام بقتل شخص ما؟ وتجيب آناليز أعتقد أنني في مرحلة ما يجب عليّ أن أقول له الحقيقة».

وفي غضون ذلك تأمل آناليز أن يمكنها نشر روايتها الرومانسية «الوحيد» من كسب لقمة العيش ككاتبة. وانطلقت أيضاً بكتابة متممة

الجزء الأول التي أعطتها عنواناً «في الظلام». وأخذت حياتها بالتحسن تدريجياً وتسير نحو الأفضل.

وتقول آناليز: بودي لو أن مارتن لم يتورط في كل هذه الأشياء الكريهة لكن يبقى الأمر الجيد الذي خرجت به من هذه المحنة، هو تلك الرغبة الجديدة التي اكتشفتها في نفسي ألا وهي التوجه نحو الكتابة، وعلى الأرجح أني سأعيش حياتي كأي كاتبة تسرد القصص المثيرة.

***

زهـــرة الصحراء

إذا كان ثمة حياة حقيقية نتلمسها في قصة سندريلا، فيجب أن تأتي من هناك، من إفريقيا، من القصة التي عاشتها ابنة الصحراء واريس ديري، فهي قصة تخللتها تجارب مريرة ومحن وحياة قاسية لا يجتازها شخص عادي، قصة سقطت فيها كل الاحتمالات في توقع أن يكون هناك بصيص أمل ذات يوم لتُنتَشَل هذه الفتاة من البيئة غير الآمنة والحالة المزرية التي تعيشها. ولكن النهاية جاءت عكس ذلك، ورأت ابنة الصحراء الإفريقية آمالاً كثيرة تتحقق، وقد وضعت في بيئة آمنة وأُتيحت أمامها فرص واسعة الآفاق، ووجدت من يكافئ الإنسان لعمله الجاد ويعترف بالموهبة.

كانت واريس ديري مجرد طفلة هاربة من زواج قسري في سن الثالثة عشرة، عملت خادمة في لندن، وعاملة نظافة في مطعم للوجبات السريعة، لكنها في النهاية أصبحت عارضة أزياء شهيرة، وممثلة لعبت دور البطولة في فيلم مع جيمس بوند، وأصبحت سفيرة لدى الأمم المتحدة، وبذلت جهوداً جبارة منذ سنوات، للتنبيه على خطورة ظاهرة ختان الفتيات، والضرر الصحي والنفسي الذي يصيبهن من جراء هذه الممارسة التعسفية، وواصلت عطاءها إلى أن أصبحت مؤلفة لكتاب حقق أفضل المبيعات وقت صدوره قبل أعوام، كما تم تحويله إلى فيلم وألهم الكثير في أن لا يقنطوا أو يبددوا أحلامهم إذا ما واجهوا ظروفاً عصيبة.

شهادة حية للأمل

بالنسبة للصومال، ذلك البلد الذي تعصف به المجاعة والفقر والعنف، تكون قصة واريس ديري بصيص أمل يَنْشرُ ضياءه في خضم عاصفة متأججة، وشهادة حية على التشبث بالأمل، لاسيما عندما تطرق الفرصة باب الإنسان، وكذلك على وجود الإرادة التي لابد أن تسود. وهكذا وضعت واريس جنباً إلى جنب مع نساء صوماليات أخريات من أمثال الناشطة الإنسانية الدكتورة حواء عبدي، وأخريات غيرهن، لأنها أصبحت رمزاً وركيزة ملهمة للقوة والشجاعة، وهي من النساء اللائي أثبتن أنهن لا يجب التفكير أبداً أو الاستسلام لمفهوم أن الشخص سيكون حيثما يكون قدره. أصبحت ناشطة في مجال حقوق الإنسان بعد عملها لفترة طويلة كعارضة أزياء، تتحدث عن الرعب الذي تحدثه ويلات ختان الإناث. إنها تفعل ذلك من منطلق التعاطف وإغاثة الروح الإنسانية، لإنقاذها من مكابدات مثل هذا الإجراء السائد لدى بعض المجتمعات، وكذلك لرغبتها في أن تكون صوت مَنْ لا صوت لهن.

ولدت واريس في عائلة من البدو الرحل في غالكاسيو في الصومال بالقرب من الحدود الإثيوبية، وواريس تعني زهرة الصحراء. ومع أنها من مواليد 1965 لكنها غير متأكدة من عمرها الحقيقي. وبدأت قصتها عندما كان عمرها 5 سنوات فقط، وهي طفلة أصبحت ضحية لختان الإناث الشائع في مناطقهم. نزفت واريس حتى قاربت الموت، لقد أمسكت بها والدتها وربطتها إلى صخرة ليتم قطع أجزاء حساسة من جهازها التناسلي من قبل سيدة عجرية بواسطة شفرة حلاقة عادية. ولم

تلق واريس باللوم على أمها لأنها أدركت فيما بعد أن والدتها امرأة مغلوبة على أمرها كونها كانت مقتنعة كأم بأن ما تقوم به في صالح ابنتها.

وفي الوقت الذي كُتبَ لواريس أن تنجو من الموت توفيت شقيقتها الكبرى وابنة عمها جراء ذلك، حيث نزفت شقيقتها حتى الموت، في حين توفيت ابنة عمها بسبب التهاب في الجرح.

أكثر من هروب

في سن الثالثة عشرة، قُدمَتْ واريس من قبل والدها، لتكون زوجة لرجل عجوز يبلغ من العمر ما يكفي ليكون جدها. وبسبب مخاوفها الشديدة من عدم قدرتها على تحمل طقوس ليلة الزفاف، حيث إن زوجها العجوز قد يعرضها أيضاً إلى مخاضات جديدة لا تستطيع تحملها، اختارت واريس الهروب لتنجو بحياتها. وفي الحقيقة إن المرارة والعذاب اللذين تعرضت لهما قد دفعاها لمغادرة مجتمع الصحراء الصومالية، الذي نشأت فيه، وصولاً إلى قرارها النهائي بالهروب إلى لندن.

وقد استغرقت رحلتها عبر الصحراء عدة أيام وليال وكانت وحدها دونَ طعام أو ماء. وفي مذكراتها التي كتبتها في عام 1998، تروي واريس قصتها الشخصية بكل عذاباتها. وتحولت مذكراتها إلى فيلم بعنوان «زهرة الصحراء». ويروي الفيلم الذي أخرجته السينمائية الأميركية الألمانية الجذور شيري هورمان، سيرة واريس الشخصية. وجاء ذلك الاهتمام بقصتها بعد أن سجلت حضوراً لافتاً في تسعينيات القرن العشرين كواحدة من أفضل عارضات الأزياء في العالم، وكذلك

إثر جرأتها في أن تبوح للعالم بأسرار قضية ختانها وهي طفلة، والتي أجريت في ظروف غير صحية.

وتحكي واريس كيف أن رحلتها عبر الصحراء أدت في النهاية إلى العيش مع أحد أقربائها في مقديشو، وتخلل رحلة وصولها عدد من الحوادث، فقد ظلت تسير على قدميها تسعة أيام من دون حتى طعام. كما استيقظت ذات مرة من نومها لتجد أسداً يحدق بها وهي ممدة على الأرض. وتعتقد بأنه تركها لأنها لم تصلح أن تكون وجبة لأسد جائع؛ لأنها كانت نحيفة جداً و«لا تستحق الأكل». كما أنها كانت على وشك أن تتعرض للاغتصاب على يد صديق السائق الذي التقطها ليوصلها عندما كانت تقف على قارعة الطريق. وتتذكر واريس أنها ضربت ذلك الرجل الذي هاجمها بحجر، وقفزت من الشاحنة وركضت هاربة من أجل حياة كريمة. وتقول واريس إنها لم تتبين ما حدث للرجل بعد أن ضربته بالحجر لأنها فكرت بالهروب فقط.

قصة النجاح

في البداية عملت في مقديشو في الطابوق، لكن الأمور العصيبة وظروفها السيئة أخذت تتلاشى شيئاً فشيئاً من طريقها عندما وصلت إلى بيت عمتها في مقديشو التي رَتبَت لها رحلة الذهاب والعمل خادمة في منزل أحد الأقارب في لندن. وما إن وصلت إلى هناك، عملت واريس خادمة لمدة أربع سنوات وحصلت بعد ذلك على وظيفة منظفة في مطعم للوجبات السريعة. ومن هنا يبدو أن الحظ أخذ يبتسم لها. وفي سن الثامنة عشرة تم اكتشافها من قبل أحد مصوري الأزياء في

بريطانيا يدعى، تيرنس دونوفان، والذي رأى أنها ستكون عارضة أزياء ناجحة. وسرعان ما أصبحت واريس من المشاهير العالميين.

وتقول واريس عن لقائها بتيرنس: إنه البداية التي أوصلتني ليس إلى مدارك لم أجهلها وحسب بل لم أتخيلها أبداً. إنها لحظة من الرعب، عندما يلهمك شخص ما الأمل ويمنحك المعنى في تأمل مثل هذه الكلمات: «هناك وقت ومكان لكل شيء تحت الشمس».

وحتى هذه العلاقة التي قادتها إلى سلم الشهرة قد تم تجسيدها في مشهد مؤثر في فيلم «زهرة الصحراء» حيث يلتقط تيرنس صوراً لواريس لتكون صور الغلاف لروزنامة بيريلي الحائطية، وبحلول عام 1990 عملت عارضة أزياء لصالح شانيل وليفي. ومع ذلك فقد أثر عالم الأزياء سلباً على واريس لأنها كانت تريد أن تفعل ما هو أكثر من ذلك، أرادت أن تخرج من القوقعة التي وُضعت في داخلها ضمن إطار عالم الأزياء. ورغم نجاحاتها إلا أنه كان يشار إليها مراراً بأنها «عارضة أزياء بدوية غجرية».

ولم تنس فضل عالم الأزياء عليها لأنه من قدم لها الفرصة لتكون حيث هي اليوم. لقد مهد لها الطريق لصعودها إلى عالم الشهرة والثراء. ومع ذلك، تدرك واريس أنها يمكن أن تحدث فرقاً أكثر من ذلك الذي أحدثته في عالم الأزياء. ولأنها من النوع المسكون بذكريات طفولتها، تقول واريس: إنها ترغب في ان تُسمعَ العالم صرخات جميع الفتيات اللواتي ما زلن يعانين من تلك الممارسة وتقصد بذلك ختان الفتيات، ولابد أن يعرف الجميع أنها مهمتي. وحتى حينما كنت طفلة صغيرة،

كنت أدرك أنني سأحارب هذه الجريمة. صحيح أنني لم أكن أعرف كيف وأين، أو متى، لكني كنت أعرف أنني سأفعل ذلك.

معركة ضد ختان الإناث

هناك الكثير من الناس ممن يتفقون على أن واريس ديري قد أحدثت تغييراً عندما أعلنت رسمياً عن ما حدث لها وهي صبية من ظروف أثناء ختانها. لقد أثارت انتباه العالم أجمع إلى ما يحدث في إفريقيا والكيفية التي تخضع بها البنات لعملية الختان، خصوصاً في ظروف غير صحية تؤدي إلى الموت في كثير من الأحيان. إن هذه العادة وإن كانت لا تزال موجودة، لكنها تراجعت إلى حد كبير مقارنة مع ما كانت عليه قبل عشرين سنة مثلاً. ولا تزال ديري تكافح في إطار نشاطها كسفيرة للأمم المتحدة، إذ إن معركة المرأة الإفريقية لم تنتهِ بعد والمعركة التي بدأتها ديري ضد ختان الإناث لم تنتهِ.

ويذكر أنه في عام 1996 عين الأمين العام للأمم المتحدة، كوفي عنان، واريس ديري سفيرة خاصة للأمم المتحدة للقضاء على ختان الإناث. وسافرت إلى كل بقاع العالم لصالح الأمم المتحدة، وشاركت في العديد من المؤتمرات حول هذا الموضوع، واجتمعت مع زعماء وطنيين، وشخصيات حائزة على جائزة نوبل، ونجوم عالميين، وكسبت التأييد في هذه القضية الهامة، فضلاً عن جمعها تبرعات كبيرة للأمم المتحدة.

وفي عام 1997، فعلت ما ترغب به حيث اعتزلت عالم الأزياء. وفي عام 2002، أسست منظمة غير ربحية أسمتها (زهرة الصحراء)

وهي المؤسسة التي ساعدت أكثر من 40 ألف أنثى ممن تأثرن بختان الإناث على الصعيد العالمي.

وتعتبر واريس ختان الإناث أسوأ أنواع التعذيب الذي يمكن القيام به ضد المرأة. وترى أنه من المستحيل وصف الألم الذي تكابده المرأة من جرائه. وتكمن مهمة منظمة (زهرة الصحراء) في رفع مستوى الوعي حول وحشية ختان الإناث، والظلم واللاعدالة الموجودة في هذه الممارسة. كما أنها ساعدت في حركة القضاء على هذه الممارسة في جميع أنحاء العالم. وترى أن هذه العادة السيئة لا يوجد لديها جذور ثقافية أو تقليدية أو دينية وهي ببساطة ليست سوى جريمة يجب أن تطالها العدالة. وتعد منظمة زهرة الصحراء أمل من لا أمل لهن في تجنب تعرضهن لختان الإناث. ومن جانبها تواصل واريس رفع صوتها لتكون صوت من لا صوت لهن، وعن طريق القيام بذلك، فإنها سوف تستمر في ملامسة حياة الناس وتحدث فرقاً في عالم يحتاج إلى القيام بالكثير من الأمور بشكل مُختلف، بصراحة تبدو واريس عرابة إفريقية تستنهض الهمم من أجل أصوات تُخمَد في الخفاء.

***

ضريرة تطوف العالم بدراجة

قبل الدخول في تفاصيل هذه الرحلة الجميلة، لابد أن نعرف أن بطلة هذه القصة هي سيدة ضريرة تدعى كاثي بيرشال، لم تكن حتى سنوات قليلة مضت قد امتطت دراجة نارية في حياتها قط، ولم تتوقع أنها وبعد أن بلغت منتصف الخمسين تقريبًا، ستصبح من بين النساء اللواتي سجلن أسماءهن في قائمة من سافرن حول العالم على متن دراجة نارية. ولكنها تقول إن ذلك الحلم البعيد المنال أصبح حقيقة بمساعدة زوجي برنارد الذي ذلل كثيرًا من الصعاب. وكذلك لكونها تؤمن بأن الحياة لحظات خاطفة والسعيد والذكي من يقتنص الفرص لاستغلالها، ولأنها لا تبصر فلم تكن تريد أن يكون العمى عائقاً في طريق أحلامها. واللافت أنهما باعا منزلهما ليمولا رحلة العمر.

وقد اتهمهما البعض بالجنون حينما عرفوا أنهما سيطوفان دولاً من كل أنحاء العالم على الدراجة النارية في رحلة أمدها عام كامل، لاسيما أن هذا النوع من المغامرات يحتاج إلى شخص معافى صحيًا. وعن مدى استيعابها ومعرفتها لما يدور حولها لأنها ضريرة فقد كان نظام الاتصال الداخلي الذي استخدماه قد مكّن زوجها من أن يصف لها كل شيء. ولأنها تتمتع برغبة جامحة في اكتشاف الأشياء فإنها استخدمت حواسها الأخرى كالسمع والشم للتعرّف على الأشياء التي تحيط بها.

ويبدو أن الزوجين قد نجحا في القيام برحلة لا يقوم بها إلا الشباب والأصحاء بحيث إنهما عندما عادا إلى وطنهما قررا أن يؤلفا

كتاباً عن تلك الرحلة التي أدهشت كل من سمع بها أو قرأ عنها أو شاهدهما خلال الرحلة.

دراجة بعد الخمسين

لم تكن كاثي بيرشال تلك السيدة الضريرة قد امتطت دراجة نارية في حياتها قط، ولم تتوقع أنها وبعد أن بلغت منتصف الخمسين تقريباً أن تفعل ذلك، غير أن كل شيء قد تغير بعد أن انطلقت في عام 2008 برفقة زوجها برنار سميث على متن دراجتهما النارية البي ام دبليو نوع «بيرثا» الحمراء اللون في رحلة لمدة عام شملت كلاً من أوروبا وآسيا وأستراليا وأمريكا الجنوبية والشمالية. وفي الوقت الذي يتطلب هذا النوع من المغامرة إنساناً جريئاً معافى وحزمة من المعايير التي تجعله قادرًا عليها، كانت كاثي التي تبلغ من العمر (54 عامًا) مسجلة كشخص ضرير لا تستطيع الإبصار.

وتقول كاثي عن تلك الرحلة وعن حياتها: «تزوجت منذ 19عامًا لكن زوجي توفي وكان عليّ بناء حياة أخرى. وكنت أرغب في ركوب تحديات جديدة لذلك كنت أحاول خلال الإجازة الذهاب للإبحار والتزلج والقفز بالمظلة، وكان الهدف من ذلك هو الأعمال الخيرية إلى أن التقيت بشريك حياتي برنارد. وكان برنارد الذي يبلغ من العمر (56 عامًا) راكب دراجة نارية طوال حياته ويعمل في المعهد الوطني الملكي للمكفوفين ويحلم دائمًا بالسفر حول العالم. وفي الحقيقة لم نكن من الأشخاص التقليديين، بل من النوع الذي يؤمن بأن الحياة قصيرة للغاية ولا داعي أن نندم على ما قد يفوتنا».

المنزل مقابل المغامرة

وبالفعل بدأ الزوجان، وهما من سكان ارينغتون، شيشاير في المملكة المتحدة، بتمويل الرحلة من المال الذي حصلا عليه بعد بيع منزلهما الوحيد وتقدما للحصول على إجازات من عملهما. وشكك العديد من الناس بجدوى الرحلة عبر التساؤل عما إذا ستكون كاثي قادرة على التمتع بمثل هذه الرحلة؟ وتعترف بأن الفكرة كانت غريبة إلى حد ما لاسيما إنها لم تجرّب مثل تلك الرحلات كما هو الحال مع زوجها برنارد.

وتوضح كاثي: «لقد كان لدينا نظام اتصال داخلي على الدراجة يجعله قادرًا على وصف كل شيء عندما نكون في حالة ركوب وقيادة للدراجة». وتستذكر كاثي تلك الرحلة وتقول: «كان بإمكاني أن أشم رائحة العبير بأنواعه المختلفة كأن يكون قطع العشب والماء والطعام. كما أن في الهند كانت هناك روائح رائعة بسبب التوابل التي تستخدم بكثرة، وهناك الضجيج. ففي المدن المزدحمة أشعر بحركة المرور من خلال الأصوات وحركة الأشياء ولكن في الريف والمناطق الزراعية أستشعر الهدوء التام، بينما عند السواحل والشواطئ أسمع صوت البحر وارتطام الأمواج».

وتضيف كاثي، التي ولدت وكانت تعاني من مشكلة صحية غير طبيعية أدت فيما بعد إلى تدهور بصرها بدءاً من مرحلة الطفولة: حتى الآثار عادة تكون لها رائحة مميزة، ففي حالة الأحجار القديمة أو الأرضيات الخشبية، يمكن أن تشم رائحة الزمن الذي ينتمي إليه المكان. وفي بعض الأحيان، وهو الوصف الذي ربما تخطت به حتى

قدرات زوجها برنارد في الوصف حيث تقول كاثي: في الأكروبوليس، كان برنارد يقودني ويحاول أن يكون دليلي، وفي محاولة لوصف كيفية تم تركيب الأحجار جميعاً على بعضها البعض حيث يفسر لي أن الأحجار كانت ضخمة جدًا ولكن ذلك لم يكن له أي معنى بالنسبة لي. ولكن في منارة متحف المكفوفين في أثينا تمكنت من استكشاف نموذج للأكروبوليس بواسطة يدي. وعندما عدنا إلى الأكروبوليس كان له معنى أكثر من ذلك بكثير. وفَعَلَتْ الشيء نفسه مع دار الأوبرا في سيدني، وتُعلق كاثي على ذلك بقولها: أخبرني برنارد أنها أشبه بصدفة مقلوبة رأساً على عقب أو صدفة مدرعة، وبالنسبة لي لا أعرف ما تبدو عليه الصدفة المدرعة لذا فلا يمكن أن أتصور ما كانت عليه إلى أن استشعرت النموذج بنفسي.

مشاكل عدة

بشكل عام إن المشاكل الرئيسية التي كانا يعانيان منها خلال رحلتهما حول العالم ليس عاهة العمى التي تشكو منها كاثي ولكن الصعوبات في الحصول على التأشيرات، وظروف القيادة الصعبة وبعض الأعطال الميكانيكية التي تعرّضت لها دراجتهما المضمونة البي ام دبليو نوع بيرثا.

وتعترف كاثي: لم يكن لدي أي خوف قبل أن ننطلق في رحلتنا حول العالم لأنني أثق بزوجي «برنارد» بنسبة مئة في المئة، ومع ذلك فإنني لم أفكر فيما سيحدث لي لو أن شيئاً ما تعرّض له برنارد خلال ذلك؟. وكانت هناك مرة واحدة صادف أن انتابها مثل هذا الشعور وذلك بعد أن نال منها الإرهاق. وتتحدّث مستذكرة وهي تطلق آهة: «كانت الهند مخيفة. لم تكن

هناك فسح للوقوف على جوانب الطرق التي كنا نسير عليها، والسيارات وعربات دفع التي يدفعها الأشخاص تخرج من كل مكان، فضلاً عن الأبقار. وقد تسبب ذلك في أن نخرج من الطريق عدة مرات. كما أنه ذات يوم استغرق الأمر بنا أن نقضي 14 ساعة لقطع مسافة 90 ميلاً فقط. وكان السبب الذي دفعنا إلى ترك الهند، هو حجم حركة المرور».

وبدلاً من ذلك توجهنا إلى النيبال، حيث بقينا لعدة أسابيع أطول مما خططنا له. وتقول كاثي: لقد أحببت النيبال. واستمتعت فعلاً هناك فقد ركبت أحد الفيلة، وشعرت أن الفيل قد خلق من الجلد فقط وكان كبير الحاجبين وضخماً جدًا بحيث شعرت أنني أشبه بقشة عندما ترجلت منه حيث برك هو على الأرض ووضعت ساقاً على ساق وانزلقت منه إلى الأسفل وبدا كما لو أنه زلاجة.

وقضى الزوجان أياماً جميلة وإن كانت صعبة في النيبال وقضيا ليلة رأس السنة في رحلة مع الأفيال في إحدى الغابات تخللها الكثير من الإثارة غير المتوقعة، لاسيما عندما قام أحد الدببة بالاندفاع نحو المجموعة التي تمتطي الفيلة. وسمعت كاثي التي شعرت بالرعب، زمجرة الدب وهو يهاجم المجموعة. وتقول كاثي وهي تضحك: «لقد رفعت ساقي بسرعة جدًا، وفي لحظتها سادت حالة من الخوف والارتباك بسبب ذلك الهدير الهائل ومقابل ذلك ارتعدت حتى فيلتنا».

كما حدثت تجربة أخرى مع نوع آخر من الحيوانات في معبد النمور في تايلاند. وتقول كاثي: «لقد سمح لي الشخص المسؤول عن رعاية النمور أن أقوم بضرب نمر صغير على ظهره. وكانت أكثر من ضربة بالنسبة له ولم يكن رد فعله كما أتخيل حيث بدا شرساً».

المتعة أولاً

أيا كانت التجارب التي عاشها الزوجان خلال طوافهما في المدن والطرقات، فقد قرّرت كاثي في نفسها أن تظل إيجابية تحت أي ظرف وتعلق على ذلك: «نحن في الواقع لم ننظر إلى الأمور على أساس أنها تمضي بسهولة، ولكننا كنا ننظر إلى حجم المتعة التي نعيشها. إن الأرياف التي تختلف بشكل لا يصدق هي التي نالت إعجابي. وتضيف عن الرحلة «إن بيرو والنيبال وكولومبيا من البلدان المثيرة جدًا لأن كل شيء بدا جديدًا وغير متوقع».

وفي بيرو، أصبحت كاثي أول شخص لا يبصر تتسلق قمة جبل ماتشو[1] بيتشو، وتعني «قمة الجبل القديمة». وتقول كاثي: «أردت أن أصعد إلى الأعلى ولكن عدم التمكن من رؤية المسار جعل الأمور صعبة للغاية وكذلك لأن معظم الصخور مختلفة الأحجام والسطح متفاوت وغير مستوٍ، ولكن حديث زوجي برنارد خلال ذلك خفف عني كثيراً. وفي أعلى القمة التقيا بزوجين كنديين بهرا من الإنجاز الذي حققته كاثي بالوصول إلى أعلى القمة. وتقول كاثي: «لقد

(1) تعني كلمة ماتشو بيتشو «قمة الجبل القديمة». وبنيت هذه المدينة من قبل شعب الإنكا في القرن الخامس عشر، وتقع هذه المدينة في كوزكو في بيرو بين جبلين من سلسلة جبال الأنديز على ارتفاع 2340 متراً فوق سطح البحر، وعلى كلا جانبيها هاوية سحيقة يبلغ ارتفاعها حوالي 600 متر، وأسفلها نهر أولو بانبا. وهي قرب نهر أوروبامبا وهي على بعد 120 كم شمال كوزكو. قامت منظمة اليونسكو بتصنيف هذه المدينة في قائمة التراث العالمي عام 1983. وهي إحدى عجائب الدنيا السبع الجديدة.

ساعدوني على النزول الذي كان أكثر صعوبة من الصعود. واستغرق منا ذلك حوالي خمس ساعات لكنه ليس بالأمر المهم».

وفي أمريكا الجنوبية انطلق العنان لخيالها حيث تقول: «لقد أحببت كل شيء هناك، كان الجميع عطوفين وأبدوا استمتاعهم برحلتنا. وهناك رأينا أفضل الناس».

وعلى الرغم من المشاكل في الحصول على التأشيرات في أماكن معينة تقول كاثي: «بمجرد أن يرى الناس القصبة البيضاء الخاصة بي فإن معظم الناس يخرجون ليبدوا استعدادهم لتقديم المساعدة، وعلى الرغم من أنه في الهند سأل أحدهم زوجي: هل بإمكانها أن تتكلم»؟.

لوائح ولكن

الشيء الوحيد الذي تتأسف عليه كاثي هو عدم وجود المزيد من الوقت لكي تقضيه في الولايات المتحدة، حيث تقول: «لقد أردنا أن نشحن الدراجة بواسطة السفينة ولكن اللوائح في الولايات المتحدة تقول إنه لا يجوز القيام بذلك. لذا توجب علينا الذهاب مسافة ثلاثة آلاف ميل بعيدًا عن الطريق الذي خططنا له وهو الأمر الذي اضطرنا للتوجه إلى كندا بحيث إنه لم يكن لدينا الوقت للتوقف في لاس فيغاس أو زيارة جراند كانيون». ومع ذلك، فإن الهدف الحقيقي من هذه الرحلة قد تحقق حيث تُعلق على السبب الرئيسي لهذه المغامرة بالقول: «أردت أن يعرف جميع من التقيت بهم أنه بالإمكان أن تفعل أي شيء حينما تحصل على المساعدة المطلوبة. وإذا امتلكت أي نوع

من الإعاقة فإن أي شيء يبقى ممكناً. فقط اخرج من دائرتك، وافعل شيئاً ما. إن المساعدة موجودة إذا كنت تبحث عنها».

وقد تعاون كل من كاثي وبرنارد على كتابة مذكرات رحلاتهما، التي صدرت ككتاب حمل عنوان «لَمس العالم». وتقول كاثي: «لقد تواصلنا نحن الاثنين على حد سواء مع مجلات طوال الرحلة وكنا دائمًا ننوي تأليف كتاب عنها، وللأسف، بعد فترة وجيزة من عودتنا من رحلتنا تم تشخيصي بالإصابة بمرض السرطان ولكن كتابة هذا الكتاب منحتني التركيز خلال فترة العلاج. وقد قضينا وقتاً طويلاً مع بعض وحتى أثناء الكتابة كنا سوية نضع تسلسل الأحداث.

وتضيف كاثي: «إن الناس يشعرون بالدهشة لأننا ذهبنا نطوف المدن حول العالم ولكني أرغب في أن أفعل كل شيء من جديد. إن الحياة لحظات خاطفة والسعيد والذكي من يقتنص الفرص وأنا لا أريد أن يكون العمى عائقاً في طريق أحلامي».

***

المجرمة الواعظة

في كتاب مثير وجدير بالقراءة تبوح تشايانا، تلك الفتاة الإنجليزية بتفاصيل رحلتها وتجربتها التي لم تكن بالقصيرة مع عالم الجريمة. وكانت تلك الرحلة قد انتهت بمقتل صديقها المجرم، وهو الحدث الذي شكل مفصلاً هاماً في تحولها من عالم الإجرام إلى عالم الهداية والإيمان، حيث اعتنقت الإسلام وتحولت إلى امرأة واعظة تُقدم خلاصة تجربتها من أجل تقويم سلوكيات الطلاب الذين يكونون عادة في أعمار حرجة خشية انجرافهم أو انحرافهم.

كان وجود تشايانا ضمن عصابة للبنات أعطاها شعوراً بجو الأسرة الذي افتقدته بسبب المشاكل التي كانت تعصف بأسرتها وسرعان ما تطورت نشاطاتها، حيث انتقلت من الشجار والاشتباكات والسرقات البسيطة إلى عمليات السطو وبيع المخدرات، وبعد أن أوغلت في عالم الجريمة اتخذت لها صديقاً مجرماً يساعدها على الهروب عندما يكون هناك اشتباك أثناء تنفيذ أعمالهم الإجرامية. وتعترف تشايانا في الكتاب بأنه في نهاية الأمر لا يصحُّ إلا الصحيح.

فتيات العصابات

ترى تشايانا أنها نشأت في عالم بائس وفقير، وكان هناك تاجر مخدرات بالشقة المجاورة لها، كما أن الشارع يعج بالعصابات، وفي

داخل منزلها كان العنف سيد الموقف. تقول تشايانا: كنت أقف عند الباب حينما كان والدي يضرب والدتي في غرفة المعيشة ومع أنه دائماً ما يعود ليعتذر لها إلا أنه يعيد الكرة ثانية، وأصبح الأمر معتاداً لها كما لو أنه لعب في الطريق أو سماع صوت سيارة الآيس كريم، ولكن بعد إقدامه على حادث اعتداء عنيف ووحشي تمَّ إلقاء القبض عليه من قبل الشرطة ولم تشاهده تشايانا لفترة طويلة جداً.

وفي القصة التي تسردها عبر صفحات كتابها الواقعي حول حياتها كفتاة عصابة تقول تشايانا إنها تخلت عن عائلتها الأصلية وكونت لها عائلة وأصدقاء في داخل العصابة التي انتمت إليها، وتلك العصابة منحت الكتاب الاسم الذي يحمله «فام» وأصبحت هذه العصابة عائلة تشايانا الجديدة بعد تسربها من عائلتها الحقيقية.

وبسبب ذلك الوعي المتنامي من خطورة فتيات العصابات وكذلك المتورطات في العنف في شوارع لندن تصدرت المراهقات العناوين الرئيسية بعد موجات العنف في «وايتبرك» و«بلاكبيرن» في بريطانيا. وهكذا انتشر الرعب بين سكان الاحياء بحيث إن البعض من الجيران لا يطفئون أضواء بيوتهم بسبب الخوف من عصابات الفتيات.

لا للرجال.. لا للقانون

في الحقيقة إن مثل تلك التفاصيل موجودة في كتاب تشايانا، حيث يتناول أجواء الرعب والهلع والفوضى بسبب هذه العصابات والتي اشتهرت باسم عصابات البنات، ويصبح الاعتقاد السائد في بعض الأحيان أن قانون الغاب هو الفيصل في بعض الأحياء الشعبية، وفي

إحدى الفقرات تكتب: في شوارعنا نتداول عبارة، لا للرجال.. لا للقانون، وسرعان ما أخذت هذه الشوارع تتنفس كل ما هو سيئ. أما اليوم فقد أصبحت تشايانا تجلس في مكتب مكافحة عصابات البنات في جنوب لندن كأي امرأة متزنة ولا تمت بصلة لما كانت عليه من قبل.

لقد كانت تشايانا مع صديقتها الآسيوية (روكسي) التي سردت قصتها في الكتاب أيضاً، كتلتين من الشر والجريمة. ومع أن تشايانا تظهر كأي طالبة جامعية تقف عند المحطة تنتظر الباص إلا أن القصة الحقيقية تجدها هناك في عينيهما، في كل شيء شاهدتاه، كالقتل والأسلحة والمخدرات، وفي العديد من جنازات الصديقات اللاتي سقطن ضحايا بسبب العنف والجريمة، وبالتأكيد إنه لمن الصعب أن يتم استيعاب هذا الحجم من الجريمة وهي ما زالت في الثالثة والعشرين من عمرها.

وفي الكتاب تبين تشايانا أن عصابتها، التي تحمل اسم N2L وتعني، لا شيء يفقد العداوة، تعيش منافسة مع عصابة أخرى، وبالنسبة لكلتا العصابتين فإن نتائج أي فضح أو خيانة قد تؤدي إلى سنوات طويلة من السجن أو القتل، كانت الحياة رخيصة جداً في عالم تشايانا الإجرامي. وتقول: في العصابة يجب على كل واحد أن يجلب شيئاً على المائدة وتلك هي المهارة. ونحتاج إلى لطاشة لنحصل على المال ومتخصصات مخدرات وبلطجيات للمساعدة في الشجارات وجميعهن كن من فتياتي.

التنافس الإجرامي

سرعان ما أدركت تشايانا أن جميع أفراد عصابتها كن يعشن حياة مضطربة. فمع بداية سن المراهقة، عندما تشكلت العصابة، وبالرغم من انخراطهن جميعاً بالمدرسة، واجهن مشاكل إضافة إلى مشاكلهن الأسرية، لذا فإن الفتاة منهن كانت تبحث عن حياة أخرى في محاولة لإثبات وجودها، وبالتالي تقوم بسرقات الشوارع. تقول صديقتها روكسي: كنا نحدد الضحية ونتعقبها، وتعمل الفتاة كل شيء إلى أن يقوى عودها، وكذلك تبيع المخدرات ولكن بكميات قليلة، وتعترف روكسي أنها خرجت من أحد المحلات بسرقة ملابس قيمتها أكثر من ١٠٠ ألف جنيه إسترليني.

وتصف تشايانا ما يقمن به بالإدمان حيث يذهبن للتسوق يومياً بعد المدرسة وتعلق قائلة: حينما نريد أن نذهب إلى حفلة دي جي فذلك يعني أننا سنحصل على ملابس جديدة وحينها سنخرج من المحل مع ما نريد من ملابس جديدة لنلبسها وسرعان ما تكونت لدى تشايانا خزانة ملابس كاملة جميعها تحوي ثقوباً صغيرة بسبب قلع العروة المعدنية المانعة للسرقة. كما كان لديها كمية كبيرة من الأحذية حيث كانت تسرق فردة حذاء يسرى من أحد المحلات واليمنى من محل آخر لأنها تدرك أن بعض المتاجر تعرض فردة حذاء واحدة. وفي أكثر السرقات المضحكة قامت بسرقة بعض الأثاث الذي تركته فيما بعد لأنه ثقيل جداً وبسبب تعقيد تجميعه مشيرة إلى أنها قامت بذلك لأن إحدى صديقاتها لديها طفل وترغب في أن يكون له بيت جميل

ولكونها فتاة فإنها لا تثير الانتباه كثيراً مثلما يحدث مع الشباب بحيث كان يتيح لها ذلك أن تخرج بصيد ثمين.

ومع مرور الوقت أصبح أصل التنافس مع العصابة الأخرى غامضاً لكن ذلك لم يستنزف قدرة الفتيات على القتال. وأحياناً يكون القتال مواجهة بين فتاة ضد فتاة وفي الغالب يكون معركة جماعية. وفي أحد الأيام خرجت تشايانا وصديقاتها من حفلة لصغر أعمارهن ووجدن بانتظارهن مجموعة تتكون من ٢٠ فتاة. وتقول تشايانا: قفزت الفتيات نحونا بسرعة من خلف الجدار متسلحات بقضبان حديدية وعصي وهـراوات فاندفعنا راجعات للحفلة والتقطنا أي شيء يمكن أن نستخدمه في المعركة، حيث كانت روكسي تحمل قنينة وتسلحت تشايانا بمطفأة سجائر زجاجية ورمتها على فتاة من العصابة الأخرى فتشظت ثم التقطت إحدى الشظايا وبدأت بالإمساك بإحدى الفتيات من رأسها وأخذت بتمزيق وجهها. وفي الكتاب تصف سبب غضبها في تلك المعركة هو أن إحدى فتيات عصابتها تعرضت للضرب المبرح، حيث تقول: انتابتني ثورة غضب وأخذت أجرح وجهها في كل مكان إلى أن جرحت راحة يدي، ولم أنتهِ إلا بعد أن قامت فتياتي بسحبي بعيداً عنها.

جرائم مروعة

لأن هذه المشاهد منفرة، فقد علقت تشايانا عندما سئلت عن احتمال أن يروع الناس حينما يقرؤون في الكتاب تفاصيل أعمالهن الإجرامية قائلة: قد تصدم هذه الأفعال الناس لكنها الحقيقة التي ما

زالت تحدث، بل هناك ما هو أسوأ. كما أن هناك فتيات أصغر سناً يدخلن في العصابات مثلما فعلنا نحن من قبل، وسيكون الناس هم الحكم، وبالتالي فالأمر متروك لهم فيما لو أرادوا أن يغضوا الطرف أو يتركوا أنوفهم تتنفس هذا الإجرام، إنهم بحاجة إلى أن يعرفوا لأنهم يعيشون هنا في إنجلترا وهذا ما يحدث في بلدهم.

ومع تقدم تشايانا في السن قليلاً أصبحت أقل تورطاً بنشاطات عصابة البنات وتحولت نحو الانخراط مع الشباب الذكور وحياة الجريمة التي يتعاطون معها. وحسب اعتقادها أنها كانت تتحول نحو مرتبة أعلى حيث أصبحت تعيش بشكل مستقل وتحتاج إلى المزيد من المال من أجل فواتير إنفاقها الاعتيادية إضافة إلى نفقات ملابسها والمارجوانا التي تتعاطاها. لذلك بدأت ببيع الهيروين وغيره من المخدرات، واعتادت الوقوف عند حافة الطريق في سوهو، حيث تصل إلى منطقتها في حوالي الساعة العاشرة مساء وتحصل على فترة راحة في الثانية فجراً ثم تبدأ مشوارها الثاني من الرابعة حتى الثامنة صباحاً وتقف هناك وفي فمها شيء تلوكه وفي يدها قنينة ماء بحيث تستطيع غسل يديها مما تحمله فيما لو داهمت الشرطة المكان.

كانت تنظر إلى العالم المدني كحياة طبيعية، لكن ذلك لم يغرها رغم الخوف الذي تكتنفه حياتها. وتضيف: كان لَديّ وضع معين، فعندما أذهب للمرقص ليلاً لا أقف في الصف بل اعتدت أن أدخل مباشرة فيه وتكون المائدة محجوزة بانتظارنا.. أعتقد أنني أؤدي حياة جيدة هنا.

نهاية اللعبة

في النهاية توقفت تلك الحياة عن أن تكون مثيرة وبدأت تواجه المسدسات المصوبة في وجهها وداهمت الشرطة شقتها في الفجر، حيث تمّ طرحها أرضاً بعد أن ألقي القبض عليها في سيارة مسروقة تم استخدامها في عمليات سطو مسلحة، لقد اعتقلت ومن ثم أطلق سراحها وبعدها أعيد اعتقالها لحيازتها الهيروين وقد أخبرت بأنها سترسل إلى السجن ولكن أطلق سراحها بسبب إيقاف التنفيذ وهو ما جعلها تقرر ألا تقضي ليلة واحدة بالسجن مرة أخرى. وبينما استمر صديقها بتنفيذ عمليات السطو المسلح وفي بعض الأحيان كان يطلب منها أن تهتم بسلاحه الناري وتلك طريقة كلاسيكية تجعل من الفتاة الشابة تتكفل بإخفاء السلاح لأنها إن لم تفعل ذلك فإنه سيبحث عن فتاة أخرى تقوم بذلك وهذا يعني أنها ستخسره.

وعادة تلعب صديقة تشايانا دور سائق الهروب في عمليات السرقة لأنها تستطيع القيادة بسرعة فيما تذهب تشايانا بعيداً في تنفيذ الخطة وتبقى عيناها فقط على صديقتها لتضمن أنها حصلت على المطلوب بالشكل الصحيح. وذات ليلة انخرطتا فيما اسمته بـ«مشاجرة حانة» وهي خدعة تستخدم كوسيلة للسرقة المسلحة بحيث يتم إيقاف من في المطعم بالقوة والإكراه. ولكن صديقها أصيب بطلقة في ظهره ما أدى إلى سقوطه على الأرض، غير أن رجال النادي الليلي أخرجوه إلى الشارع وتركوه على الرصيف كي يتجنبوا الوقوع بمشاكل مع الشرطة التي عادة ما تحضر مع سماعها لإطلاق النار. وبقي صديق تشايانا على قيد الحياة لبعض

الوقت لكنه في النهاية فارق الحياة. وقد تسبب موته في انكسار نفسي وعاطفي لتشايانا بحيث أصبحت تشعر بأن حياتها صارت بلا طعم.

اعتناق الإسلام

في النهاية اعتنقت تشايانا الإسلام وحين سئلت عن الكيفية التي وازنت بها إيمانها مع مغامراتها السابقة، قالت: كثيرات من صديقاتي كن مسلمات وجميعهن مررن بنفس الطريق الذي عشته وها هن اليوم يقمن ويؤدين الصلاة خمس مرات في اليوم كي يكفرن عن خطاياهن. وبعد أن نالت حصتها من ظلام الخطيئة أصبحت تنهض من فراشها لتؤدي صلاة الصبح قبل أن تعود ثانية للسرير وتستيقظ وهي متطهرة ومستعدة ليومها الجديد. وخلال سردها لتحولها إلى الإسلام، كانت تشايانا تحسب على أصابعها الأشخاص الذين تعرفهم ممن سقطوا قتلى بإطلاق النار وتقول: وصل العدد إلى ثمانية أشخاص وهناك أربعة قتلوا نتيجة طعنهم بسكاكين. وقد ذهبت إلى العديد من الجنازات ولكن موت صديقها المقرب جداً هو من غَيَّرها. وكما تقول هي: إذا ذهبنا في عملية سطو فإن الناس تريد استرجاع فلوسها وبالتالي سيجدونك ويقتلونك. وعندما قال لها صديقها إنه لن يعيش أكثر من ٢٥ سنة فإنه لم يكن شخصاً ميلودرامياً.

واليوم تعمل تشايانا كواعظة ومستشارة سلوكية في مؤسسة اسمها «من أجل الحياة» حيث تذهب إلى المدارس وتلتقي الطلاب الشباب لاسيما المنحرفين منهم وتخبرهم عن تجربتها وكيف أن الأمور تبدو رائعة، وكيفية التحول نحو الصواب. وفي الغالب تعمل تشايانا مع

فتيات محددات خلال أوقات الدراسة وعلى شكل جلسات انفرادية وتقول: إن الفتيات يحترمنها لأنها منحدرة من نفس الخلفية وبإمكانها أن تقدم لهن البديل الناجع لأسلوب حياة جديدة وهو الشيء الذي أنفقت عليه الكثير من سنوات حياتها إلى أن استطاعت أن تصل إليه.

أما صديقتها روكسي فأعلنت عن أسفها لكل عملية بيع قامت بها إلى امرأة حامل أو أم أو أب عندما كانت تعمل في بيع المخدرات. وتقول تشايانا: المرأة الوحيدة التي حاولت فيها امرأة حامل أن تشتري منها مخدرات ورفضت أن تبيعها، قام صديق هذه المرأة بسرقة المخدرات منها لكنها أبدت أسفها عن قيامها ذات مرة بخطف وسرقة بعض الصديقات لمجرد رغبتها في أن تلقنهن درساً، فقد خططت بحيث أخذتهن إلى بيوت أمهاتهن ومن ثم انتهكت حرمة البيت بطريقة رفضت فيها أن تعطي تفاصيل هذا الاقتحام، وأعلنت عن أسفها الشديد عن تلك التصرفات وهي لم تعد تطيق هذا النوع من السلوكيات.

ولم تعد تشايانا كما كانت من قبل، بل تذهب إلى التسوق وتدفع حق مشترياتها وتعود بالملابس دونَ أي ثقوب وهو ما لم يكن مألوفاً، وأصبح لديها حياتها الطبيعية التي تستمتع بها، وتحولت إلى فتاة طبيعية ولديها وقت للحياة.

***

جنرالة ومظلية من أفغانستان

حينما نسمع عن وجود امرأة برتبة جنرال في الجيش الأفغاني يعتقد للوهلة الأولى أن هذه الرتبة ربما منحت أو حصلت عليها لأسباب اعتبارية، غير أن الأفغانية خاتول محمد زاي تنفرد بما تحمله من رتبة عسكرية لإمكانياتها الفنية والمهارية في اختصاصها العسكري، وتعتبر أول امرأة مظلية تحمل رتبة «جنرال» في أفغانستان. واستطاعت أن تقتحم أحد أصعب المجالات العسكرية، فضلاً عن تدرجها العسكري حتى بلوغها رتبة جنرال. وليس هذا وحسب بل تفوقت على الذكور عبر فوزها ببطولات المظليين التي أقيمت في كابل وحصدها ميداليات وجوائز تقدير تؤكد أحقيتها فيما وصلت إليه.

وتعرف الناس على «خاتول» خلال الاحتفال باليوم الوطني لأفغانستان عام 2002، عندما فوجئ الجمهور والرئيس الأفغاني «حامد كرزاي» بامرأة تهبط بمظلتها من طائرة هليكوبتر لتحط بينهم في وسط الملعب الذي استخدم للإعدامات إبان حكم حركة «طالبان». وهكذا أصبحت خاتول وجهاً معروفاً في أفغانستان لوطنيتها وتفانيها من أجل بلدها، ولكن يبقى للتميز ضريبة تدفعها المرأة المتفوقة لاسيما عندما تواجه البعض من الذكور ممن يرى أن المكان الأفضل للمرأة هو البيت، ووظيفتها الإنجاب وتربية الأطفال وتنظيف المنزل فقط.

أول مظلية

بدأت رحلة خاتول قبل ثلاثين عاماً تقريباً إلى أن وصلت إلى ذلك المكتب الصغير الذي تشغله في ملحق تابع لوزارة الدفاع الأفغانية، غير أنها تتذكر جيداً ذلك اليوم الذي سارت فيه الأمور على نحو سيئ بحيث إنه لا يمحى من ذاكرتها. لقد كان يوماً ربيعياً من عام 2002، حينما وقفت الهليكوبتر محلقة في سماء كابول. وعلى الأرض، كان الرئيس حامد كرزاي والآلاف من الأفغان يحتشدون في ملعب البلاد الوطني للاحتفال بمرور سنة على سقوط نظام طالبان. شكل الجمع المبتهج حداً فاصلاً مع نظام الملا محمد عمر الديني، الذي استخدم الملعب كمكان للرجم وغيرها من عمليات الإعدام.

وحانت اللحظة أمام خاتول لتكون أول مظلية في تاريخ أفغانستان حينما قفزت من الهليكوبتر وهي تحمل نصف «دزينة» من الحمائم البيضاء، حيث قامت مع انفتاح مظلتها المتعددة الألوان بإطلاق الحمائم برفق نحو الأرض، فيما بقيت هي ممسكة بالقرآن الكريم والعلم الأفغاني. ومما يؤسف له في هذه المحاولة أن الطيار أخطأ في موضعه ما أدى إلى هبوط خاتول على بعد كيلومتر من الملعب، ولكن بدلاً من أن يُشعرها ذلك بالخجل تم استقبالها، حينما وصلت إلى الملعب، وهي لا تزال تحمل مظلتها، بحرارة من قبل الجمهور حيث التصفيق والهتافات.

بطل قومي

وتقول خاتول: «بالنسبة لي ولبلدي فإنها بداية لحياة جديدة، فقد شعرت أننا قد ولدنا من جديد. لقد أظهرت للعالم شجاعة المرأة الأفغانية وما يمكنها القيام به». لقد أصبحت خاتول بطلاً قومياً، ورمزاً حياً لآمال بلادها في المستقبل، وظهرت بانتظام على شاشة التلفزيون وفي المناسبات النسوية. وقد تمت ترقيتها من عقيد إلى جنرال، وهي أول امرأة أفغانية تبلغ تلك الرتبة منذ الإطاحة بالنظام المدعوم من قبل السوفييت في عام 1992، وسرعان ما تمت ترقيتها إلى ثلاثة نجوم. ويقول الجنرال الأمريكي لاري دودني، الذي أصبح زميلاً لها في أفغانستان رغم حاجز اللغة بينهما: «أتذكرها جيداً، لقد أثرت فيّ كثيراً، وكامرأة لديها ثقة كبيرة بنفسها لما تفعله في الواقع». أما هي فتتحدث في المناسبات عن تلك القفزة المشؤومة وتقول: « كانت قصة مضحكة، لكنها دليل على المثابرة، ومواجهة الشدائد، وعدم التنازل».

وينظر أقارب خاتول وأصدقاؤها القدامى في العسكرية إليها كمثال حي عن المرأة الأفغانية. وتقول نورجاهان أكبر، وهي طالبة ناشطة التقت بالمظلية خاتول، لأول مرة منذ خمس سنوات: «أعتقد أنها نموذج يحتذى به للجيل الجديد من الفتيات والنساء الأفغانيات، لكن مع ذلك تم تهميشها».

مسيرة حافلة ولكن

نفذت خاتول، وهي من مواليد 1967، أكثر من 600 قفزة في مسيرتها العسكرية التي امتدت لأكثر من 28 عاماً، وأصبح تحليقها وقفزاتها الجريئة جزءاً منتظماً من احتفالات أيام الاستقلال والاحتفال بالعام الجديد في كابول. ومع ذلك، مضت خمس سنوات، منذ أن سمح لها رؤساؤها العسكريون والمدنيون بالمشاركة وارتداء المظلة في آخر مرة. لقد أبعدت عن دائرة الضوء من خلال إسناد مهمة ثانوية للعمل في مكاتب وزارة الدفاع.

ولا تنتقد خاتول قادتها علناً، وهذا دليل على أنها جندية جيدة، ولكن معجبيها غير متحفظين على هذا التهميش. ويقولون إنها أصبحت ضحية التحيزات التي ما زالت تعاني منها أفغانستان. والأمر لا يقف عند كونها امرأة فقط بل يقولون إن التمييز العرقي يلعب دوراً كذلك. إن خاتول من البشتون، في حين يهيمن على وزارة الدفاع، والقيادات العسكرية العليا، الطاجيك الذين قادوا قوات التحالف الشمالي إلى الانتصار على حركة طالبان في عام 2001، ومن جانبها تنفي وزارة الدفاع وجود التحيز والمحاباة العرقية في القوات المسلحة، ولكن لا يبدو مرجحاً أن يكون الرجال الذين يديرون الجيش في أفغانستان متحررين من التحيز التقليدي الذي يسود بقية البلاد. ويقول مهندس بناء من كابول تلقى تعليماً جيداً: «أنا لا أحبها، كما أن المرأة لا مكان لها في الجيش».

كانت كابول، مكان طفولة خاتول، مدينة عالمية من قبل. ويحق قانوناً للرجال والنساء على حد سواء الحصول على التعليم العام والوظائف

الجيدة، ونادراً ما يشاهد البرقع، وترتدي الشابات التنانير القصيرة أو الجينز بشكل روتيني. وتستذكر خاتول قائلة: «في تلك الأيام لم يكن الأمر ضرورياً للمرأة أن تغطي شعرها، أو ذراعيها، أو ساقيها». ولكن أوقات صعبة صادفت أسرة خاتول في مطلع السبعينيات عندما كان عمرها 6 سنوات حينما مات والدها ضابط الجمارك، تاركاً والدتها وحدها تتكفل بسبع بنات وولدين. وتعاملت الأرملة مع الأمر بشكل جيد، وكانت خاتول دليلاً على نجاحها.

كانت خاتول في الثالثة عشرة عندما اجتاح الجيش السوفيتي أفغانستان. ورحب العديد من الناس في كابول بقدوم الروس؛ غير أن صراعاً عنيفاً على السلطة اندلع بين حُكام أفغانستان الماركسيين، وصار الأمل أن يؤدي غزو ديسمبر 1979 إلى استقرار الحكومة. وفي الواقع، نجحت الجهود بطريقة محدودة على الأقل. وفي الوقت الذي شنت فيه القوات السوفيتية حرباً طويلة وقاسية من أجل السيطرة على الريف، انتهت الاضطرابات في كابول بسرعة. وواصل النظام المدعوم من الكرملين جهوده لتحديث أفغانستان، بما في ذلك تقديم الدعم لحقوق المرأة. وبالطبع إن حقوق الإنسان الأساسية مسألة مختلفة تماماً، لأن الروس كانوا لا يتسامحون مع أي معارضة لبرنامجهم.

جندية ناجحة

في الوقت الذي أنهت فيه خاتول المدرسة الثانوية، احتل السوفيت أفغانستان لأكثر من ثلاث سنوات. وعندما حضر ممثل الجيش الأفغاني حفل التخرج في مدرستها الثانوية وطلب من المتطوعين الانضمام

إلى الجيش الأفغاني، رفعت ابنة السبعة عشر عاماً يدها على الفور. في هذه الأثناء كانت والدتها تكافح لإعالة الأسرة، ومن الصعب العثور على فرص عمل لكن الأكثر من ذلك، هو ما تقوله خاتول عن رغبتها بركوب تحديات الحياة العسكرية: «أردت أن أفعل أقصى ما يكون من ناحية المتطلبات والجهود المضنية والرياضية».

لذا فإنها وقعت لتصبح مظلية. وتتذكر بوضوح كيف تم إرسالها مع زملائها من المتطوعين، ومعظمهم من الرجال، في مسيرة يومين، لمسافة 150 كيلومتراً عبر منطقة وعرة من كابول إلى مدينة جلال أباد بشرق البلاد مع حمل تجهيزات كاملة. ونامت المرأة الشابة في العراء بين المتدربين الذكور. وكانت الصخرة وسادتها وقدماها تنزفان، وبمرور الوقت انتهت المحنة. وتقول «عانينا كثيراً». غير أنها في النهاية تفوقت في الدورة.

وتعترف بأنها كانت خائفة عندما قامت بقفزتها الأولى بالمظلة في عام 1984، لكنها نسيت خوفها تقريباً قبل فتح مظلتها. وتتذكر أحاسيسها الغريبة بالقول: لم يكن على الإطلاق إحساساً بالسقوط، بل تساؤلات عما إذا سأبقى عالقة في الهواء إلى الأبد؟ أو هناك من يجعلني أنزل إلى الأسفل؟. ومع ذلك فهي لم تشهد قتالاً ضد المجاهدين الذين كانت تدعمهم الولايات المتحدة، لكنها كجندية ملتزمة أصبحت في نهاية المطاف مدربة، تعطي دروساً تدريبية في الكوماندوس والقفز بالمظلات للذكور وكذلك للإناث. ويقول عنها الجنرال الأفغاني عبد البصير أصفزاري الذي تدرب معها في الثمانينيات: «كانت دائماً

تتمتع بمعنويات عالية وكانت أفضل مني ككوماندوس وقافزة ورامية، وبإمكانها أن تطير حولي بدوائر عندما نقفز».

وعن تلك الأيام، تقول خاتول إنها لم تتعرض للتمييز الوظيفي. ومع ذلك فقد حصلت على نصيبها من التعصب الفردي. وتتذكر على نحو محدد إحدى القفزات في الثمانينيات من القرن الماضي التي كادت تقتلها حينما فشلت في فتح مظلتها الرئيسية بالكامل، ما تسبب في دورانها على نحو غير مسيطر أثناء سقوطها باتجاه الأرض. وكانت حاضرة ذهنياً بحيث فتحت مظلتها المساعدة، على الأقل لتبطئ من سقوطها، لكن كُسرت ساقها وعدة ضلوع كما خلع المعصم والكوع والكتف. ولا تزال مقتنعة بأن يداً تخريبية امتدت إلى مظلتها من أحد المظليين الذكور المستائين منها. وحتى الآن لم يقبض عليه ويعاقب.

في عام 1989، وبعد تسع سنوات من حرب استنزاف باهظة، تخلى الروس وعادوا إلى بلادهم. واستطاع النظام الدمية الأفغاني الصمود لمدة ثلاث سنوات قبل أن ينهار في عام 1992. ولكن المقاتلين المنتصرين لم يستطيعوا معاقبة خاتول لأنها كانت مع الجانب الخاسر، وذلك لحاجتهم الماسة للجنود المحترفين الذين يمتلكون مهاراتها. وقد عينت مديرة للتدريب البدني للمرأة في سلاح الدفاع الجوي. وفي نواح كثيرة كان موقف المجاهدين تجاه النساء لا يختلف كثيراً عن موقف طالبان، فقد منعوها من القفز بالمظلة، وطلب منها أن ترتدي العباءة من الرأس حتى أخمص القدمين عندما تظهر في الأماكن العامة. وعلى الرغم من أن خاتول لم يعجبها هذا الوضع، لكن لم يكن أمامها خيار آخر.

البقاء في الوطن

تزوجت خاتول من جندي أفغاني عام 1990، قُتل في الواجب بعد عام، وتحديداً بعد40 يوماً من إنجابها لابنه. وأصبحت الحياة أكثر صرامة عندما استولت طالبان على كابول في عام 1996 حيث أمرت جميع النساء بالبقاء في منازلهن حتى إشعار آخر، ووجدت خاتول نفسها محاصرة في شقتها الصغيرة، مع القليل من المال والخيارات، فهي ممنوعة من العمل أو حتى الخروج ما لم يرافقها أحد أقاربها الذكور. وعلى عكس العديد من زملائها العسكريين، رفضت خاتول الفرار من البلاد، وهي فخورة بذلك حيث تقول: قررت البقاء على أمل حدوث التغيير. ولتغطية نفقاتها، خيطت الثياب للأصدقاء والجيران، وفتحت مدرسة سرية للفتيات في منزلها. ويقوم زبائنها وطلابها بدفع كل ما يستطيعون الحصول عليه من الضروريات الأساسية، وأحياناً يقدمون كيساً من الطحين، أو زجاجة من زيت الطهي.

ونجحت هي وابنها في الصمود، وبعد وقت قصير من انهيار نظام طالبان دعيت مرة أخرى إلى الخدمة الفعلية في الجيش الوطني الأفغاني الجديد. وفي البداية ارتدت البرقع فوق زيها العسكري في الطريق من وإلى الوزارة، لمجرد الأمان، وتعلق بالقول: إلى أن استوقفني شرطي ذات مرة وقال لي بازدراء: «عمة، إلى أين تعتقدين أنك ذاهبة؟ عندها مزقت البرقع، ورميته عند أقدام الشرطي، وسرت مبتعدة». ومنذ ذلك الحين لم تلبس خاتول البرقع.

ويقول الجنرال عبد البصير أصفزاري صديق خاتول: أستغرب كيف أنها عادت بسرعة إلى القفز بعد سنوات عديدة من الانقطاع. وعملت مع القوات الأفغانية وحلف شمال الأطلسي، وضباط في الجيش الأمريكي لتصميم برامج التدريب البدني للجيش الوطني الأفغاني. وفي شقتها تعرض بفخر شهادات التقدير من فرق وألوية الجيش الأمريكي، وقد منحت ميداليات المظليين من جانب الولايات المتحدة وكندا وفرنسا. وتعد المرأة الوحيدة المشاركة في مسابقة المظلة الدولية التي أقيمت في كابول في يوم الاستقلال الأفغاني، عام 2004. وفازت من خلال تفوقها على 35 من المظليين الذكور.

حبها لبلادها وتهميشها

ومع ذلك، فإن خاتول لم ترتد المظلة منذ عام 2006. وتقول معلقة: أشتاق حقاً للقفز، ولكن غير مسموح لي بذلك، أحب الحشود عندما أقفز بمظلتي إلى الملاعب. وبدلاً من ذلك أعطيت مكتباً صغيراً في ملحق تابع لمقر وزارة الدفاع، وليس في داخل المقر الكبير. وتقول: إنها عُيِّنَت «نائب مدير التخطيط والتدريب البدني» لقوة الاحتياط الخاصة بالتأهب للكوارث التي لم تكن بدأت بتجنيد عناصرها وعملها بعد. وعندما كانت تسير في مجمع الوزارة لا يكلف بعض الضباط المجندين أنفسهم عناء إلقاء التحية لها، رغم وجود النجوم الثلاثة على كتفيها، والمجموعات الأربع من أجنحة المظليين و35 ميدالية لخدماتها الجليلة معلقة فوق بعضها البعض على صدرها.

وتعد هذه المقابلة التي أجرتها من مكتبها الصغير في وزارة الدفاع وشقتها المتواضعة في كابول الأولى التي يسمح بها لها بعد 3 سنوات. وكانت آخر مرة عندما حاول طاقم تلفزيوني أجنبي مقابلتها في وزارة الدفاع. وعلى الرغم من حصولها على موافقة مكتوبة، لكن الحراس أوقفوا المقابلة وكسروا كاميرات الصحفيين. وتقول خاتول: لم أعد أملك سلطة بعد الآن».

وكما يبدو جلياً فإن الحالة تثير الحزن لدى خاتول التي تقول: «يجب أن أساعد في تدريب القوات الخاصة والمظليين، وكان بإمكاني أن أساعد بلدي كثيراً في السنوات القليلة الماضية لو أعطيت الحق في العمل»، وأنها تتوق للعودة إلى السماء. ويقول ملصق معلق على جدار مكتبها «المرأة والرجل جناحا طائر واحد».

***

من مرشحة رئاسة إلى مختطفة

كان الانتحار هاجساً يومياً لدى «أنجريد بيتانكور» لكنه كان يؤجل. وتدربت على الهرب لكن محاولاتها الثلاث فشلت، بحيث اضطر سجانوها إلى تقييدها بالسلاسل. ومع ذلك تعلمت منهم دروساً من أجل أن تبقى على قيد الحياة. ولم تتوقع يوماً أنها ستتحرر من الأسر، رغم أنها كانت تقول حينما أعود سأفعل كذا وكذا. أما مشهد تحريرها فكان الأكثر درامية، فقد بدا سريعاً ومفاجئاً بالنسبة إليها حيث هبطت طائرتا هليكوبتر ونزل منهما جنود يرتدون ملابس منظمة «فارك» التي قامت باختطافها وأخبروا قائد المعسكر بأنهم كلفوا بنقل سجناء إلى مكان آخر. وما إن أقلعت الطائرتان، حتى أبلغوها ومن معها أنهم أحرار.

وحينما عادت إلى عائلتها وجدت أن والدها توفي وزوجها قد تزوج امرأة أخرى، وكبر أولادهـا، وصار لكل واحد منهم حياته الخاصة، وقضت سنتين حتى تعيد تكييف نفسها مع الحرية الجديدة. وظلت تشكو كوابيس سنوات الأسر الست رغم أنها حينما عادت تم استقبالها استقبال الأبطال. وبعدها بدأت الشائعات تحوم حولها، ومن بينها أنها طالبت بامتيازات خاصة وعرضت حياة سجناء آخرين للخطر. إذنْ ما حقيقة ما حدث لمرشحة الرئاسة خلال أعوام أسرها في غابات كولومبيا؟

«حتى الصمت له نهاية»

ظلت أنجريد بيتانكور، تلك المرأة ذات الجسم الصغير، والنحيفة التي ترتدي ملابس أنيقة محتجزة في غابة، لمدة ست سنوات لدى القوات المسلحة الثورية الكولومبية. وبعد عامين من إنقاذها، وخلال وجودها في نيويورك، كانت الدلالة الوحيدة الظاهرة على محنتها هي علامات صغيرة حول عنقها تشير إلى السلاسل التي قيدها بها السجانون. عملت أنجريد على تأليف كتاب كان اجتراراً يومياً لتجربتها كرهينة.

وتقول: «لقد كان التعذيب ذلك الشيء الذي من الصعب جداً أن تكتب عنه». ويروي كتابها الذي حمل عنوان «حتى الصمت له نهاية» قصة مثيرة عن أنجريد التي نشأت في فرنسا واستقرت في كولومبيا في 1989، لقد تعرضت للضرب ومنع عنها الطعام وأجبرت على السير عبر الغابات، وكانت تُهدّد بعيار ناري في الرأس في كل وقت. وشارفت على الموت بعد إصابتها بالتهاب الكبد.

ومع ذلك يبقى الجزء الأكثر رعباً في محنتها هو حالة الاستهداف الدائم الذي يحيط بها في الغابة، في ظل غياب أي معالم لحياة مدنية، سواء مادية أو نفسية. وبعد بضعة أشهر من أسرها، أدركت أن الذي هددها والذي شكل أكبر خطر على حياتها هو الجنون وليس العنف. لقد سُلخَت من الأسرة والأصدقاء، ومن وضعها الطبيعي، وعند نقطة ما جردت حتى من اسمها، لذا كان عليها أن تفكر كيف تتجنب الجنون. وتتساءل، ما هي قيمة الإنسان عندما يكون كل ما يحدد هويته الإنسانية قد سلب منه؟

وحينما بدأت بالبكاء قالت: كانت معركة، ليس مع رجال العصابات وحسب بل مع أنفسنا، مع دواخلنا، لأننا فقدنا البوصلة التي تأخذنا إلى ما هو جيد. انقلب كل شيء في الأسر رأساً على عقب، وما أزال حتى اليوم أشاهد كوابيس العذابات التي عشناها، خصوصاً أنك تكون بكامل عُريَك وعليك أن تواجه من أنت.

الاختطاف

تعرضت أنجريد لعملية اختطاف حقيرة. ففي عام 2002، كانت تقوم بيتانكور بحملتها للرئاسة في جميع أنحاء البلاد زعيمة لحزب الخضر، وهي منظمة شبابية تنهج فلسفة سياسية قوية مساندة للبيئة ومكرسة لمحاربة الفساد في كولومبيا. وبينما كان من المقرر أن تظهر في قرية «سان فيسنتي» النائية، تم إلغاء مكانها على متن المروحية العسكرية في اللحظة الأخيرة الأمر الذي دفعها إلى أن تقرر القيام بهذه الرحلة بالسيارة، علماً أنها تعرف أن سان فيسنتي تقع داخل منطقة تسيطر عليها منظمة «فارك»، وهي جماعة من المتمردين الماركسيين، تصفها بيتانكور بالتالي: «منظمة مسلحة تابعة لأباطرة المخدرات».

ومن المؤكد أنه لا يمكن لأي سياسي في كولومبيا أن لا يكترث لاحتمال الاختطاف، فكيف الحال بالنسبة لها، فهي واحدة من اثنتين من المرشحات للرئاسة، ومن عائلة سياسية شهيرة، فوالدتها يولاندا بوليسيو، عضو سابق في مجلس الشيوخ ووالدها غابرييل بيتانكور، دبلوماسي معروف، كما أنه وبالرغم من أن عمر حزبها أربع سنوات فقط لكنه يحظى بمكانة رفيعة جداً. لذا عندما اصطدمت سيارتها

بحاجز على الطريق عرفت من خلال التدريبات التي خضعت لها من قبل أنها في ورطة.

وكانت الساعات الأولى من أسرها عصيبة لكن قائد «الفارك» تصرف على نحو مهذب جداً معها، فمثلاً سألها عما إذا كان تكييف الهواء يزعجها وينابيها بدكتورة أنجريد. وبعد ذلك تحولوا من الطريق الرئيسي إلى طرق فرعية وصولاً إلى قرى نائية، وفي نهاية المطاف، تم التخلي عن السيارات وبدأوا بالسير على الأقدام إلى مخيم مؤقت في غابات استوائية. كانت تدرك أن حالتها سيئة، لكن معنوياتها جيدة وكانت مساعدتها كلارا روخاس قد خطفت معها. وفي السنة الأولى من الأسر ظلت بيتانكور وروخاس مع بعضهما، وبعدها تم نقلهما مع عشرات من الرهائن السياسيين والعسكريين إلى سجن تم بناؤه في عمق الغابة. وبعد الإفراج عن بيتانكور، قيل الكثير من القصص المختلفة من سجناء كانوا معها في الأسر.

في المعسكر الأول، بقيت بيتانكور وروخاس في كوخ مساحته (6 في 4 أقدام)، تحت ناموسية واحدة، والمرحاض عبارة عن حفرة في الأرض تعج بالذباب، ولديهما نسخة واحدة من هاري بوتر، كانت روخاس تحملها في حقيبتها. ومع توالي الأيام والشهور أصبحت الهواية الوحيدة التي تمارسانها إزعاج بعضهما البعض. وتقول بيتانكور: الزمن يتحرك على نحو غريب جداً في هذا الفراغ بحيث إنها غير متأكدة من تسلسل الأحداث.

مخاض الاحتجاز

تكتب بيتانكور في مذكراتها أنها وفي وقت لاحق عندما حاولتا الفرار، انتقدت روخاس لأنها بدأت التفكير بنفسها في وقت مبكر جداً. واعتقدت أن روخاس، التي حملت طفلاً في الأسر من أحد الحراس، قد أصابها الجنون. ولم يعد هناك اتصال بينهما.

وتضيف: كان لدينا حراس يمكن أن يطلقوا النار علينا في أي وقت ويستمتعوا بشعورهم بأنهم يستطيعون قتلنا، وسيطرتهم على أي إنسان آخر. بدا ذلك قاسياً جداً ولكن مع ذلك كانت لنا مشاكل يومية صغيرة مع زملائنا الرهائن أيضاً كتلك التي تحدث في العائلة. لكن ما رأيته في الغابة هو أننا كنا قادرين على أن نغفر لسجانينا الذين يمكن أن يقتلونا، ولكن لا يمكن أن نغفر للشخص الذي يعاني بيننا. وفي الحقيقة إن السجين الزميل، يعتبر هدفاً آمناً من الخوف والإحباط، وقطعاً لا يمكنك أن تكون عدوانياً تجاه سجانك الذي لديه بندقية ولكن يمكنك أن تكون عدوانياً مع من يتواجد بجانبك ويزعجك بوجوده.

وتتساءل بيتانكور، ما الذي يمكن أن نقوم به عندما نكون في الوضع نفسه؟ إن الجهة الوحيدة المسؤولة عما يجري هي حرب العصابات الدائرة هناك. وتقول: في الأشهر الأولى كان هناك الكثير لنتعلمه عن الحياة القاسية ومقاتلي القوات المسلحة الثورية الكولومبية، وكنا في حاجة أيضاً إلى السيطرة على الإرهاب النفسي، لاسيما ما يترتب جَراء الحياة البرية القاتلة. وتصف بيتانكور تعرضها لهجوم من سرب من الدبابير الذي نخر

جسدها بلدغاته. كما أن أحد الحراس سحب أفعى أناكوندا عملاقة من النهر وأظهرها لهم لثنيهم عن محاولة السباحة. وبالنسبة للسجينات هناك تهديد إضافي يتمثل بالعنف الجنسي. لقد كتبت بيتانكور عن«استغلال» السجينات وعن البذاءات التي يتلقينها على يد الحراس.

إصرار على الآدمية

حاولت الهروب أكثر من مرة حتى إن الكتاب الذي تناول قصة أسرها بدأ بنتائج محاولات الهروب الثلاث الفاشلة. لقد حاولت أن تشق طريقها عبر الغابة، لكن أعيد اعتقالها وتعرضت لانتقامات عنيفة حيث ضربت ووضعوا السلاسل حول عنقها. وحاولت الشكوى لكن لم تجد من يسمعها. وعلى مدى ست سنوات، ظلت تنتقل من معسكر إلى آخر ويتغير زملاؤها السجناء، ومع ذلك كانت هناك ومضات بسيطة من الفرح.

والشيء المثير في أسرها، كما تقول هي، أنها كانت بعيدة عن تقويض إيمانها بالطبيعة البشرية، حيث أكدت إيمانها اللا متناهي بعطش الإنسان للسعادة. لقد حصلت على عدة خياطة بشق الأنفس وقامت بأعمال التطريز. وتعلمت كيفية نسج الأحزمة لكنها شعرت بحزن حقيقي عندما علمت أن الحرس الذي كان يعلمها قتل في كمين.

ومع وصول سجناء جدد حصلت على كتب جديدة للقراءة، ورفضت التخلي عن قاموس ضخم الحجم حملته على ظهرها مسيرة 40 ميلاً. وعلّمت الفرنسية لزملاء الأسر ويوم عيد ميلاد ابنتها السابع

عشر سمح الجنود لها بالاحتفال به، وصنعوا لها كعكة، أو بالأحرى قاموا بقليها، لأنه لا يوجد فرن. وزينوها بعبارة: ميلاني.. عيد ميلاد سعيد من «فارك».

ولكن هذا اللطف لم يدم طويلاً. بعد بضع سنوات لاحظت وجود أسلوب آخر، فبعد أن حاول الحراس أن يكونوا في البداية لطيفين انزلق الأمر إلى سوء معاملة روتيني، وتجويع، والضغط عليهم لأن قائدهم كان رجلاً قاسياً وهو ما يمكن أن يحدث في أي من المنظمات المسلحة، وهذه القدرة على القتل تحطم النفسية لأنهم يعتقدون أن لديهم الحق في الاعتداء، وتقول بيتانكور: لذا علينا أن نكون مدركين لهشاشتنا كبشر، لاسيما عندما نرى القسوة ندرك أنه في ظروف معينة، يمكن أن نكون نحن قساة أيضاً».

ومن ثم، اتخذتْ قراراً بأن هناك بعض المبادئ لن تساوم بشأنها. فعلى سبيل المثال قررت أن لا تجيب عندما ينادونها رقماً وليس اسماً، وهو القرار الذي أثار غضب زملائها الأسرى واتهموها بأنها تبحث عن إثارة المتاعب. وخلال الاستدعاء تخبر سجانها: «عندما تريد أن تعرف إذا ما زلت هنا، يمكنك استدعائي باسمي وسأرد عليك».

وتضيف: طلب مني بعض أصحابي السجناء التوقف، وأخبرتهم بأنه من الضروري أن لا نسمح لهم بالتمادي في ذلك حتى لا يصبح من السهل جداً لهم أن يضعوا أرقاماً علينا ثم يطلقوا النار علينا، وعلى الأقل نحرك ضميرهم بأننا بشر. وبعد احتجاجها، تم إلغاء النداء بواسطة الأرقام. وتقول: «كان الشيء الذي منحنا اطمئناناً

أكثر على مدى سنوات هو الراديو» و في أوقات معينة من اليوم كانوا يحصلون على الاستقبال في الغابة حيث يستمعون إلى الرسائل التي تبث من قبل عوائلهم. وتقول بيتانكور: كانت أمي، ولمدة ست سنوات تقوم كل يوم بإرسال رسائل عن طريق الراديو، لكنها لا تعرف ما إذا كنت أستمع لها أم لا.

محاولات الهروب

مع مرور السنوات علمت أن زوجها خوان كارلوس ليكومبيت أصبح معروفاً بغيابه عن منزلهم، وتقول: خلال تلك السنوات في الغابة، وجهت أختي وابنتي وابني نداءات عبر الراديو، كما سمعت الصحفيين عبر الراديو يقولون إن الزوج السابق لها قد تزوج، وهكذا عرفت أن لزوجها حياته الجديدة. وشعرت أن الهروب كان الخيار الوحيد. وفي محاولتها الأولى، مشت قليلاً في الغابة قبل أن تدرك أنها لم تكن جاهزة، فهي لا تستطيع شرب الماء من بركة موحلة ما دفعها إلى العودة.

بعد ذلك، اتجهت إلى التدريب، وأكدت على ردود أفعالها وقدراتها الجسدية، وشرب الماء من البرك لكي تتعود معدتها على ذلك. وكانت جهودها الأكثر جرأة صنع جهاز للعوم من براد الستايروفوم للنزول إلى النهر، مع ادراكها بأن الموت جوعاً أو الموت بواسطة الأناكوندا بانتظارها. ومن الصعب تصور أن يعمل شخص في مثل هذه الظروف المرعبة.

وتقول: ساعدني شيئان؛ أولهما ما قاله حارس لي عندما سألته عما إذا تخيفه الغابة. وأجاب: كما ترين، نحن سنموت جميعاً لكن لا نعرف متى. وبالنسبة لي، قد أموت بسبب شجرة تسقط على رأسي أو

أناكوندا تلدغني، ويمكن أن تكون رصاصة من العدو. لا يهمني فلن أعيش حياتي بالخوف بسبب الأخطار من حولي، وتقول أنجريد: لقد ساعدني كلامه كثيراً.

وتضيف: إن السبب الثاني كان خدعة نفسية وهي أن تسيطر على خوفك وتبدأ بالقول: حسناً، أنا خائف جداً، ولكن عليّ أن أفعل هذا وذاك لأقتل الخوف. ومن خلال التركيز على الإجراءات والحركات، والخوض في الأمور البسيطة حيث تتحرك يدي لانتزاع هذا الغصن، بإمكاني أن أذهب إلى ما وراء الخوف. لذا ضع الخوف جانباً وقم بالأساسيات ولكن لم تنجح أي من محاولات الهرب.

التحرر من الأسر

عندما حررت بيتانكور من أسرها، كان المشهد أكثر درامية، فقد هبط جنود فارك بطائرتي هليكوبتر وأخبروا قائد المعسكر بأنهم كلفوا بنقل سجناء إلى مكان آخر. وما إن أقلعت الطائرتان، حتى أُبلغ الـ 15 سجيناً، والذين بينهم بيتانكور، أبلغوهم بأنهم جنود من الجيش الكولومبي، قضوا شهراً في التسلل إلى المراتب العليا من فارك حتى يتمكنوا من أن يقولوا لهم: أنتم الآن أحرار.

وبعد إطلاق سراحها، كان على بيتانكور التكيف مع عالم مختلف عن ذلك الذي غادرته. لقد توفي والدها عندما كانت في الأسر، وكانت قد عرفت من خلال قصاصة من صحيفة وصلت إلى المخيم ملفوفة احتوت خبر جنازته. ووجدت أن طفليها اللذين كانا بعمري 13 و 16 عندما اختطفت قد أصبحا رجلين، كما تبخر زوجها من حياتها.

وأعربت عن دهشتها لرؤية زوجها هناك مع باقي أفراد أسرتها عندما عادت من الأسر. وحاول تبرير بعض الأشياء لكن الأمور قد ذهبت نحو مدارج بعيدة رغم أنها ما زالت تكافح من أجل النسيان.

أما عن علاقتها مع ولديها فقد كانا متمسكين بها جداً بعد الإفراج، وبطبيعة الحال، رغم العاطفة المتأججة للأيام الأولى، أدركت لاحقاً أن لكل واحد حياته، لذا، صارت الأولوية بالنسبة لها خلق علاقة قوية جداً مع كل واحد منهما واستعادة مكانتها كأم. وتقدمت بيتانكور مع عدد من الرهائن السابقين للحصول على تعويض من حكومة كولومبيا التي اتهمتها صحافتها بـ«الجحود» تجاه الشعب الذي أنقذ حياتها. واعتبرته رد فعل حاقد ومسيّس، لأنهم صمموا على معاقبتها لانتقادها الرئيس السابق، الذي لو لم يقم مكتبه بإلغاء مقعدها على المروحية العسكرية في ذلك اليوم، لما تعرضت للاختطاف.

حياتها في سطور

* ولدت في 25 ديسمبر 1961.
* دخلت السياسة من خلال عملها في وزارة المالية الكولومبية.
* انتخبت في 1998 كعضو بمجلس النواب.
* أسست حزباً سياسياً باسم «الأكسجين الأخضر».
* عام 2002 دخلت الانتخابات الرئاسية في كولومبيا.
* في مايو من السنة نفسها، أسرتها قوات «فارك».
* يوليو 2008 تم تحريرها مع عدد من الرهائن.

ابنة دكتاتورين

كان والدها فرانسيسكو ماسياس نجيما[1]، أول رئيس لغينيا الاستوائية، الذي تميز حكمه بإعدام الآلاف من الناس. لكن الرجل الذي أصبح وليّ أمرها، وتولى عمليًا مكانة الأب، كان أسوأ صيتًا من أبيها الأصلي، إنه كيم إيل سونج[2]، مؤسس كوريا الشمالية، الذي صنع ذلك الواقع المرير لحياة الناس عبر معسكرات الاعتقال والتحكم شبه الكامل بالإعلام.

لقد دخلت الآنسة «ماسياس» في رعاية السيد كيم عندما طلب والدها منه الإشراف على تعليم ثلاثة من أبنائه. ومثل الكثيرين في العالم الثالث خلال حقبة ما بعد الحرب الباردة، اتجه الزعيم الإفريقي للسيد كيم حيث ترك أبناءه في عهدة هذا الرجل. ولكن بعد فترة وجيزة،

---

(1) فرانسيسكو ماسياس نجيما:

حكم فرانسيسكو ماسياس نجيما غينيا الاستوائية منذ استقلالها عن أسبانيا عام 1968 وحتى عام 1979 حيث أطيح به في انقلاب.

(2) كيم إيل سونج:

رئيس جمهورية كوريا الشمالية السابق. في عام 1948 عندما انقسمت كوريا قام سونج بتشكيل حكومة وكان رئيسًا للوزراء في الجمهورية الكورية الشعبية الديمقراطية، التي عرفت لاحقًا باسم كوريا الشمالية.

أطيح بالسيد ماسياس وأعدم من قبل الثوار في بلاده، ومع ذلك أوفى السيد كيم بالوعد، حيث انخرط الأطفال الثلاثة في بعض من أفضل المدارس في كوريا الشمالية.

والآنسة ماسياس من مواليد 1972 غادرت كوريا الشمالية بعد التخرج في الجامعة، وواجهت صعوبة في تصديق أن والدها كان بهذه الدرجة من الشر، حسبما يقول عنه الناس، وعاشت فترة ليست بالهينة وهي تحاول التوفيق قدر الإمكان بين الزعيم الكوري الشمالي الذي رأت فيه صفة الإنسان المخلص والراعي وبين الديكتاتور الذي يحبس شعبه.

كورية الهوى إفريقية الأصل

وتضيف ماسياس، خلال مقابلة باللغة الكورية، التي تعتبرها لغتها الأم: إذا سألت عن كيم إيل سونج السياسي، فأنا أعارضه لأن ما فعله كان خاطئًا، لكن إذا سألت عن كيم إيل سونج بصفته والدي، فأنا دائمًا ممتنة له على الرعاية والحماية، والتعليم الذي قدمه لي. فهو الرجل الذي أوفى بوعده لصديقه المتوفى.

ومن أي زاوية تقريبًا ينظر لها، فإن حياة السيدة ماسياس كانت حياة غير عادية بكل المقاييس، ودائمًا ما كان لديها شعور ما بأنها شيء من الخارج. لقد وصلت إلى كوريا الشمالية وهي في سن السابعة من العمر، كطفلة إفريقية في واحدة من البلدان الأكثر تجانسًا في العالم. وكان أطفال الحي ينادونها بكلمة «بلاكي» أو «رأس الخروف» وذلك بسبب لون بشرتها وشعرها الأسود الكثّ.

وتقول السيدة ماسياس: عندما غادرت بعد 15 عامًا، كنت أفكر وأشعر، وأتكلم وكأني فتاة من كوريا الشمالية في عالم يعتبرها دولة منبوذة، وفي عالم يرى أن كلا «أبوَيها» من المذمومين لتصنيفهما من بين أسوأ الطغاة في العالم الذين لم يعرف لهم مثيل أبدًا.

وكما يبدو فإن هذه الفجوة ألهمتها لتكتب وقائع حياتها في مذكرات باللغة الكورية ونشرتها في أغسطس 2013 في كتاب حمل عنوان: «أنا مونيكا من بيونج يانج».

ملحمة الأسفار

بدأت ملحمة أسفار تلك الطفلة في عام 1979 بعد أن سافرت هي وشقيقتها وشقيقها ماريبيل وباكو، مع والدتهم، التي ذهبت أيضاً لإجراء عملية جراحية، إلى بيونج يانج، عاصمة كوريا الشمالية، حيث كانت تعتبر أكثر أمانًا من بلادهم. (كان البلد لا يزال يقدم أداءً جيداً بما فيه الكفاية، من خلال اقتصاد تحت سيطرة حكومة تدعم التجارة إضافة إلى الدعم السخي من الاتحاد السوفييتي).

وتتذكر الآنسة ماسياس الترحيب الحار للسيد كيم، حيث كان يربت على رأسها حينما التقاها، وقدم لكل طفل ساعة يد من نوع أوميجا وكتب عليها اسمه، وزودهم بسيارة فولفو يقودها سائق. ولكن بعد أربعة أشهر من وصولهم إلى بيونج يانج، قتل والدها، وتوجهت الأم إلى الوطن في محاولة لحماية ابنها الأكبر.

والتحق الأطفال الأصغر سناً من ماسياس بمدرسة مانجيونجدي الثورية في بيونج يانج، وهي من المدارس المخصصة لأبناء العوائل الأكثر ولاءً للحكومة. وهناك تعلموا إطلاق النار باستخدام بنادق الكلاشينكوف، وتعلموا «خطايا» الغرب تجاه كوريا الجنوبية. وعلى الرغم من أن الآنسة ماسياس كانت تفتقد والدتها، وكثيرًا ما كانت تبكي بفراشها في الليل، لكنها كانت تشعر بأنه يقوم برعايتهم بشكل جيد.

وتتذكر أنها التقت السيد كيم وجهاً لوجه في ثلاث أو أربع مرات فقط، جميعها قبل أن تبدأ المدرسة، لكنه تابع رعاية أطفال صديقه الرئيس المتوفى من خلال مساعديه. وتقول الآنسة ماسياس: «كان كيم إيل سونج يرسل لنا هدايا العيد ونهاية السنة وتذاكر المسرح، واعتدنا مشاهدة العروض العسكرية بالجلوس خلفه، على بعد قليل من الصفوف التي يجلس بها، ولم ينقصنا أي شيء، على الرغم من أن تحركاتنا واتصالاتنا مع الكوريين الشماليين العاديين كانت محدودة للغاية». وتتذكر بأن الطلاب المحليين خصصوا للتجسس على الأجانب، ولكن لم تحدث إهانات لأن الأطفال الكوريين الشماليين غالبًا ما يحاولون حماية أصدقائهم الأجانب من العقاب.

التحول إلى حياة الحرية

وخلال مرحلة الكلية، بدأ إيمان «ماسياس» في الاهتزاز. وعند تسجيلها في جامعة بيونج يانج قسم الصناعات الخفيفة، انتقلت إلى السكن في أحد الفنادق، حيث يتم إيواء الطلاب من دول بينها الصين وسوريا. ولكون سيطرة الدولة على الطلاب الأجانب أقل صرامة بكثير

من بقية السكان، أصبحت الفتاة قادرة على مشاهدة «رامبو» وغيره من الأفلام الأمريكية والاستماع إلى الموسيقى الكورية الجنوبية التي يقوم الطلاب الجدد بتهريبها إلى السكن. وتتذكر ماسياس أنه ذات مرة عندما انتقدت طالبًا سورياً كان يجلس على صحيفة تحمل صورة السيد كيم، وهو ما يعتبر جريمة خطيرة في كوريا الشمالية، أجابها ذلك الطالب: هذا لأنك عشت فقط في بيونج يانج.

ونما الفضول لديها للتعرف على العالم بقوة، تحديدًا بعد زيارة استغرقت أسبوعين إلى بكين في عام 1988 حيث التقت هناك ابن عمها الذي كان سفيرًا لغينيا الاستوائية. وفي اليوم الأول، قالت إنها اصطدمت بشخص أمريكي وهربت من المكان، بسبب خوفها من سنوات تعرفت فيها على الكتب المدرسية التي تصور الأمريكيين كالشياطين المتعطشين للدماء. ولكن في وقت لاحق، بدأت تلاحظ أن الأمريكيين والكوريين الجنوبيين الذين رأتهم بدوا متحررين من الهموم مقارنة بالكوريين الشماليين.

وحينما عادت ثانية إلى بيونج يانج، بدأت تشعر بعدم الارتياح. ففي كل صباح كانت تواجه لوحة إعلان، حينما تنظر من نافذة منزلها، وكتب عليها: «الحزب يقرر، ونحن نتابع !، في حين أن أول لوحة كانت قد لاحظتها في بكين لم تكن تحمل رسالة سياسية، بل تحمل صورة امرأة جميلة. وفجأة بدا الكوريون الشماليون بالنسبة لها مثل شعب يقرأ مخطوطات في مجموعة أفلام».

وبدأت تطرح المزيد من الأسئلة على الطلاب الأجانب، وفي النهاية قررت بأنها في حاجة لمغادرة كوريا الشمالية لمعرفة حقيقة نفسها. ومع

اقتراب التخرج، أرسل السيد كيم خطابًا يفاضلها بين البقاء أو الذهاب بعد أن تكمل تعليمها؛ وأجابت بأنها ترغب في الانتقال إلى إسبانيا. وبعد أخذ دروس في الإسبانية، غادرت في عام 1994. وشملت هدايا فراق السيد كيم تذكرة طائرة إلى مدريد ومالاً يكفي لمدة ستة أشهر.

الوفاء لكيم إيل سونج

لم يمضِ وقت طويل على إقامتها القصيرة في غينيا الاستوائية، إلا وسمعت بأن السيد كيم قد توفي. وتقول ماسياس بأنها ذهبت وشقيقها باكو إلى سفارة كوريا الشمالية وأحرقا البخور وانحنيا أمام صورة السيد كيم، ومن ثم أخذت تبكي.

وتضيف: «لا يهم ما يقوله الآخرون عنه، كان يمثل شخصية الأب بالنسبة لنا، وطلب مني أن أدرس بجد واجتهاد وأصبح امرأة ذات كرامة».

ومنذ ذلك الحين، حاولت ماسياس أن تصنع معنى لطفولتها، وإيجاد مكان لها في العالم. عاشت 10 سنوات في أسبانيا، ثم انتقلت إلى الولايات المتحدة. وتضيف أنها أثناء وجودها في نيويورك، تم التعاقد معها من قبل أشخاص لا يعرفون خلفيتها، للعمل في رياض الأطفال. لكنها لم تشعر أنها في وطنها حقًا إلى أن انتقلت إلى كوريا الجنوبية في عام 2007. وفي هذه الأيام، كانت ماسياس، التي لم تتزوج بعد، تقسم وقتها بين سيئول؛ وغينيا الاستوائية، حيث إخوتها، إضافة إلى أسبانيا، حيث تعيش والدتها وشقيقتها. ولكي تؤمن لقمة العيش عملت على تصدير الأقمشة الكورية الجنوبية للبلدين الآخرين.

وتتجنب ماسياس المناقشات السياسية حول والديها، لكن العثور على وظيفة لها ارتبط إلى حد ما بسمعتهما. ومع ذلك أصيبت بـالاكتئاب وبكت لمدة ثلاثة أيام بعدما علمت في أسبانيا أن السيد كيم قد بدأ الحرب الكورية. ولم تصدق ما أخبروها به صديقاتها الأسبانيات غير أن رحلة إلى المكتبة أثبتت صحة ما قيل لها.

وفي عام 2004، وبسبب الحنين إلى الوطن، عادت إلى بيونج يانج كسائحة. وتدفقت الدموع من عينيها عندما جاء منظر بيونج يانج أمامها من نافذة الطائرة. غير أنها لا تستطيع التنقل بحرية أو العثور على أي من صديقات المدرسة القديمات، لكنها استطاعت تحديد موقع محل تصفيف الشعر القديم، الذي قدم لها حلاقة مجانية. ولاحظت أن أسلوب تصفيف الشعر لم يتغير منذ 10 سنوات. وتضيف ماسياس: كان أمرًا حزينًا أن تشاهد كيف أن بيونج يانج لا تزال واقفة عند التوقيت نفسه، بينما أنا قد تغيرت كثيرًا .

***

أصغـر بحارة تطوف العالم

كانت البحارة الأصغر في العالم لورا ديكر تسأل نفسها في بعض الأحيان وهي في عرض البحر: لماذا أنا هنا وما الذي أفعله؟ لكنها مع ذلك لم تفكر ولو للحظة واحدة بالتراجع عن حلمها في الإبحار وحدها حول العالم على متن قارب طوله 11.5 متر. ويمكن تخيل أي نوع من الكوابيس عانتها تلك الفتاة التي في سن المراهقة وهي تنطلق في رحلة بحرية حول العالم، لاسيما عندما تكون بمفردها على متن يخت تتلاطمه أمواج البحر العاتية أو حينما ينتابها الخوف من هجمات محتملة من قراصنة البحر أو كائنات بحرية فتاكة.

وفي النهاية عادت لورا منتصرة مكملة تلك الرحلة التي استمرت مايقرب من عام كامل، محطمة الرقم القياسي السابق بفارق زمني قدره ثمانية أشهر تقريباً والذي كانت تحمله المراهقة الأسترالية جيسيكا واتسون التي حققت إنجازها قبل بلوغها سن السابعة عشرة بثلاثة أيام فقط. ولورا التي ولدت على متن يخت قبالة سواحل نيوزيلندا خلال رحلة استمرت سبعة أعوام قام بها والداها حول العالم، خاضت معركة قضائية شرسة مع سلطات بلادها بسبب سنها الصغير لكي تحصل على الموافقة على انطلاقها برحلتها الفردية والمليئة بالمغامرات وحدها.

ومن الممكن أن يتبادر إلى الذهن في هكذا مجازفة خطرة سؤال مفاده: أي نوع من الكوابيس قد تراود فتاة في سن المراهقة في

رحلة بحرية منفردة حول العالم؟ بالتأكيد أن لورا كانت تخاف من أن تتعرض للاختطاف من قراصنة، أو الوقوع في فخاخ الشعاب المرجانية أو مواجهة لقاءات مخيفة ربما تكون مع مخلوقات البحر الغامضة والفتاكة. غير أن ذكريات التجارب المؤلمة التي تعرضت لها تلك التلميذة التي عمرها 16 عاماً على أيدي سلطات بلادها هولندا بسبب رغبتها في القيام برحلتها المحفوفة بالمخاطر هي أكثر ما رافقها وآلمها. ولأن لورا تدرك ما تريد القيام به، فقد أطلقت أفقها نحو الإبحار حول العالم رغم أن هيئة الخدمات الاجتماعية الهولندية بذلت قصارى جهدها لمنعها من مواصلة حلمها. وفي النهاية نجحت وأصبحت لورا أصغر شخص يطوف حول العالم بمفرده.

ولدت على قارب

ولدت لورا ديكر على متن قارب، وما إن أصبح عمرها ست سنوات تعلمت السباحة. وفي الثالثة عشرة أبحرت من هولندا إلى إنجلترا معتمدة على نفسها. وكلما كبرت لورا كبر طموحها. وبعد إن أكملت الثالثة عشرة قررت أن يكون تحديها المقبل الإبحار حول العالم بمفردها. ورغم اعتراض والديها في البداية لكنهما في النهاية وافقا على دعم سعي ابنتهما. لكن السلطات الهولندية لم تقتنع بسهولة فقد منعت المحكمة لورا بحجة أنها أصغر من أن تستطيع الاعتناء بنفسها في البحر.

وبعد معركة قضائية شرسة حصلت لورا في النهاية على حقها في الإبحار شرط أن تكمل دورة للإسعافات الأولية وأن تسجل لتؤدي نظام التعليم عن بعد، لكن حتى بعد شروعها في رحلتها كانت لورا

تعاني من التدقيق والمتابعة التي تجريها السلطات الهولندية المختصة عليها وعلى عائلتها.

وفي نفس الشهر الذي أنهت فيه لورا رحلتها البحرية أصدر «مسؤول التغيب» في السلطات المحلية مذكرة استدعاء لوالدها مدعياً أن ابنته التلميذة فشلت في إكمال الواجبات المنزلية في الوقت المحدد. ولكن محاميهما، أوضح أنه ليس من السهولة دائماً أن تقوم بذلك وهي تبحر حول العالم، مشيراً إلى وجود بعض الصعوبات، فمثلاً أن لورا لا تستطيع باستمرار الحصول على شبكة الإنترنت، وأحياناً هناك عواصف ويجب عليها أن تضع المحافظة على حياتها في المقام الأول. كما أشار المحامي، إلى أنها تبذل قصارى جهدها لكن المدرسة تعرف قبل أن تبحر في رحلتها بأنه ستكون هناك أوقات لا تقدر فيها على الوفاء بالمواعيد النهائية لتسليم الواجبات.

معارضة السلطات

ليس من المستغرب أن يكون للسلطات الهولندية ما تقوله عن فتاة عمرها 14 عاماً تتسرب من المدرسة لتبحر في رحلة حول العالم على متن قارب وحدها معتمدة على نفسها. إن رأي السلطات الرسمية كان يمثله معهد هولندا للشباب الذي أكدت المتحدثة فيه بأن واجبهم، والقانون يحتمان عليها البقاء في المدرسة حتى بلوغ السادسة عشرة، وأن على المعهد أن يتأكد من أن لورا قادرة على التأقلم مع متطلبات هذا التحدي الهائل وهي شابة صغيرة؛ ومن بين هذه المتطلبات كيف ستواجه قلة النوم، وكيف ستكون بمفردها طوال وقت الرحلة، على سبيل المثال.

ويرى المعهد، أنه من الصعب جداً الحكم على مثل هذه الأمور، لاسيما عندما يكون التعامل مع عزيمة هذه الشابة. كما لم يكن القصد جعل حياتها صعبة، إلا أن الأمر يقف عند سلامتها. وفي النهاية، أثبتت لورا أنها ذات شخصية قوية جداً سواء قبل أو خلال رحلتها الخطرة.

الحرية في الإبحار بعيداً

وفي أعماق البحر شعرت لورا بحريتها، وحافظت على التواصل مع الحياة فمثلاً احتفلت بالسنة الجديدة، فبدلاً من النظر إلى الألعاب النارية التقليدية تأملت لورا القمر والنجوم وهي تضيء سماء المحيطات. ومع اقتراب رحلتها من النهاية بدأت لورا تفكر في تجربتها. حيث كتبت: أبحرت في مختلف بقاع العالم، ومررت بأصعب الموانئ وأخطر الشعاب وأبحرت خلال أعنف العواصف، وطوال الوقت كنت مسؤولة عن نفسي وعن زورقي «غوبي»، وعندما أنظر إلى الوراء أشعر أن السلطات الهولندية عاملتني بشكل خطأ. وكنت أخشى أن تواصل الكوابيس مطاردتي. ومع ذلك، في البحر شعرت بالراحة والاسترخاء، وخصوصاً خلال فترة العبور الطويلة للمحيط الهندي والمحيط الأطلسي.

وتضيف: «لكن الآن يبدو أن السلطات الهولندية بدأت تسبب المشاكل مرة أخرى، وتدرك السلطات فحوى تعليقات لورا ولكن شخصاً من مكتب رعاية الشباب في هولندا يقول إنه ليس لديهم خيار سوى التدخل لأنه لو حدث وغرقت لورا فسيتم اتهامهم بعدم بذل جهود كافية لحمايتها، لكنها عادت سالمة وأعتقد أن هذا يرجع جزئياً إلى سلامة الإجراءات التي

نفذت كجزء من شروط السماح لها بالذهاب. لقد وضعنا قائمة مطالب في محاولة لضمان أن تكون رحلتها آمنة ونأسف لأن لورا صدمت لكننا غير نادمين على الوفاء بمسؤوليتنا تجاه هذه الطفلة. وبالرغم من الصدمة إلا أن هناك بضعة أشياء كانت لورا متشوقة إليها عند وصولها إلى الأرض كالمواد الغذائية الطازجة، ورؤية عائلتها مرة أخرى.

مشاهدات من الرحلة

عندما وصلت إلى سان مارتن في جزر الانتيل في منطقة البحر الكاريبي، أكملت لورا جولتها وحيدة حول العالم فيما يعرف بالإبحار المنفرد، وأصبحت أصغر بحارة تحقق هذا الإنجاز. انطلقت لورا في 20 يناير 2011 في جزر الانتيل من سانت مارتن، لتعود إلى النقطة نفسها في نادي اليخوت الذي يقع في الجزء الهولندي من الجزيرة. وخلال رحلتها، مارست رياضة ركوب الأمواج، والغوص في أعماق البحر، كما اكتشفت هواية جديدة وهي العزف على الفلوت، لأنها أسهل من العزف على الجيتار في الأحوال الجوية السيئة.

واشتكت لورا من الإجـراءات في الموانئ وعمليات تفتيش القارب، وكذلك تمزق الأشرعة، والريح العاتية، والنوم على سرير رطب ومالح، والاقتراب من التصادم مرتين مع سفينتي شحن إضافة إلى وجود بعض الزائرين المزعجين بشكل دائم كالصراصير مثلاً.

وتقول لورا: أصبحت صديقة حميمة لمركبي، وتعلمت الكثير عن نفسي. ومن بين أقسى المراحل في جولتها أنها قضت 47 يوماً من الإبحار في المحيط الهندي، حيث تركها ذلك بساقين متخشبتين،

الأمر الذي جعلها تسير ذهاباً وإياباً على الرصيف عدة مرات لتعيد لساقيها القدرة على السير وذلك عندما رست في دوربان بجنوب أفريقيا. وبينما كانت في جنوب أفريقيا، شاهدت أول حوت حقيقي. وتضيف لورا: كان يعوم أمام قاربي ودفع كمية كبيرة من المياه داخل قاربي، وكان حدثاً غير لطيف حقاً.

ويذكر أن لورا انطلقت في رحلتها بعد شهرين من إنقاذ البحار الشاب «آبي سندرلاند» الذي كان عمره 16 عاماً، من الولايات المتحدة، عندما تعرض للغرق وسط المحيط الهندي أثناء محاولة مماثلة. في حين أكملت جيسيكا واتسون من أستراليا رحلة منفردة لمدة 210 أيام وهي في سن 16 عاماً، لكنها كانت أكبر من لورا ببضعة أشهر. وقالت لورا إنها تخطط للانتقال إلى نيوزيلندا بعد رحلتها، لأنها ترغب في الإبحار هناك.

كتاب وفيلم وثائقي

واختارت لورا ديكر جزيرة سان مارتن الهولندية في منطقة البحر الكاريبي كنقطة للوصول مرة أخرى لليابسة لأنها تخشى من وجود مسؤولي الخدمات الاجتماعية إذا عادت إلى وطنها الأم هولندا مباشرة. وكتبت بعض الصحف الهولندية في حينه بتهكم أن ضباطاً من رعاية الأطفال سينتظرونها في الميناء وبيدهم الأغلال لمرافقتها مباشرة إلى المدرسة وهي المخاطرة التي لم تكن لورا مستعدة لها.

وحضر مئات الطواقم من جميع أنحاء العالم إلى مخيم نصب على الجزيرة للظفر بالتقاط صورة مع المراهقة العائدة المنتصرة. وقدمت

مئات الطلبات من مؤسسات في الولايات المتحدة لإجراء مقابلات معها. لكن لورا لم تكن مهتمة بالشهرة التي صاحبت هذا الإنجاز. وقالت إنها تفضل أن تكون في البحر بدلاً من التركيز على الشاشة.

وتقول لورا إنه وبالرغم من حبها لهولندا إلا أنها لا ترغب في العودة إليها بل تفضل الذهاب إلى نيوزيلندا، لأنها تمتلك حقوق المواطنة كونها ولدت على متن زورق كان راسياً قبالة السواحل النيوزيلندية خلال رحلة كان يقوم بها والداها حول العالم استمرت سبعة أعوام. ويذكر أن والدي لورا يعيشان في هولندا ويفضلان أن تعود ابنتهما للعيش معهما.

وفي هذا الوقت لدى لورا ما يجعلها مشغولة، لاسيما أنها من جديد تقف على أرض صلبة. كما أنها تؤلف حالياً كتاباً، وتعمل على فيلم وثائقي عن حياتها في عرض البحر الذي من المقرر أن يعرض في وقت لاحق. وتعتبر لورا تلك الفتاة المراهقة، أصغر شخص على الإطلاق يبحر حول العالم منفرداً حيث حطمت الرقم القياسي السابق بفارق ثمانية أشهر تقريباً، الذي حملته المراهقة الأسترالية جيسيكا واتسون، والتي حققت إنجازها في مايو من عام 2010 قبل ثلاثة أيام فقط من بلوغها سن السابعة عشرة. ومع ذلك فإن ما حققته لورا لم يسجل في موسوعة جينيس، لأنه قد تقرر إلغاء فئة المراهقين من سجلاتها، وذلك لعدم تشجيع حديثي السن على خوض مغامرات يمكن أن تعرض حياتهم للخطر.

جين أوستن البغدادية

في مطلع عام 2005 كانت «بي رولات»، التي تعمل منتجة في الخدمة العالمية في محطة البي بي سي تبحث عن شخص عراقي يتكلم الإنجليزية ليتحدث لها عن الحياة في بغداد التي مزقتها الحرب. وتصادف أن التقت أستاذة أدب إنجليزي تدعى «مي وتوت» حيث نسجت المرأتان خيوط علاقة صداقة أطرتها الإنسانية بكل أبعادها. وشاء القدر أن تكون «بي رولات» سبباً في انتقال «مي وتوت» من جحيم العراق إلى نعيم بريطانيا. وكانت الأستاذة «مي وتوت» العراقية مدخنة شرهة ومشهورة بعباراتها الساخرة التي تطلقها بعفوية أثناء تدريسها للروائية الإنجليزية جين أوستن، إذ تحاول من خلال قيامها بذلك أن تنقل طلابها إلى عالم آخر، عالم بعيد عن ضجيج الرصاص والقنابل الذي يترصد حياة البغداديين.

لقد نقلت «مي وتوت» وعبر رسائل إلكترونية أوضاع مدينتها بغداد المأساوية، حيث الجثث المجهولة والتفجيرات والقتل على الهوية وبالمقابل كانت تلمح من بعيد وبعين الأكاديمي والمثقف والإنسان الحياة التي تعيشها الإنجليزية «بي»، حيث تنعم بلادها بالهدوء والطمأنينة. وبسبب الدفق الإنساني الذي احتوته هذه الرسائل الإلكترونية بين المرأتين (مي و بي) تحولت إلى كتاب يوثق فترة مؤلمة للعراقيين، خصوصاً أكاديميه ومثقفيه الذين كانوا لا يجدون خلاصاً

سوى الاعتكاف أو الانزواء في المنازل فترات طويلة لكي يستطيعوا أن يبقوا على قيد الحياة.

في مدينة الموت

لقد كُلفَت «بي رولات» بإنتاج سلسلة من البرامج عن الدورة الانتخابية التي أقيمت بعد الإطاحة بنظام صدام حسين. وكانت بغداد في سنوات (2005 و2006 و2007) خطيرة جداً، بسبب أعمال العنف الطائفية التي كادت أن تدمر المدينة لو كتب لها أن تستمر. وعلى الرغم من أن المحادثة التي جرت خلال أول اتصال هاتفي بين المرأتين قد ضلت الطريق بسبب التوتر الذي كان انعكاساً لدموية المشهد في بغداد، حيث القصف والقنابل وإطلاق النار، لكنها ذهبت أيضاً إلى تجارب يومية أخرى، حيث أشارت «وتوت» إلى بعض التفاصيل الصغيرة التي تعيشها كامرأة في مدينة كانت تئن تحت وطأة مشاكل كثيرة ومؤثرة.

لقد اشتكت «مي و توت» من أنها وفي كثير من الأحيان تذهب إلى العمل بشعر نصف مجعد ونصفه الآخر مصفف بسبب انقطاع التيار الكهربائي في منتصف عملية تجفيف شعرها. وكتبت «بي رولات» في رسالة بريد إلكتروني بعثتها في وقت لاحق من ذلك اليوم: لقد جعلني ذلك أعتقد أن الحياة تستمر رغم المعارك في الشوارع والانفجارات التي تظهر في نشرات الأخبار. لا أستطيع أن أتخيل كيف هي الحياة وأحب أن أسمع منك كيف تتدبرين أمورك.

«بـي» و« مـي»

ومنذ ذلك الحين بدأت المرأتان بتبادل الرسائل الإلكترونية التي استمرت على مدى السنوات الأربع التالية إلى أن استطاعت «بي»

مساعدة «مي» على الهروب من العراق. ووجدت كل من «بي» التي كان عمرها (38 عاماً) وهي أم لثلاثة أطفالٍ صغار و «مي» التي عمرها (50) عاماً، وهي أكاديمية لم تنجب أطفالاً وتعيشان في بلدين مختلفي الثقافات، وجدت المرأتان أرضية مشتركة لمناقشة أشياء مهمة كثيرة من بينها أزواجهما وفرص العمل والأسر والآمال والمخاوف، وعلى ما يبدو ناقشتا تفاصيل دقيقة أخرى من الحياة اليومية.

وفي وقت لاحق، وبينما كانت المرأتان جالستين معاً على طاولة في مطبخ منزل السيدة «بي» الذي يطل على حديقة هادئة في شمال لندن، قالت «بي»: في بعض الأحيان أشعر «بالحيرة» وأنا أقرأ رسائل البريد الإلكتروني القادمة منك يا «مي» التي تصف التفجيرات أو الجثث في الشوارع أو التهديدات بالقتل، و تجيبها «مي»: قولي لي شيئاً جميلاً، حينها سأفكر، بأنه يجب على أن أبتهج. أبدو بعض الشيء غبية في بعض الأحيان فيما لو ذهبت نحو الزهور والطيور والحلوى والأطفال، ولكنها مع ذلك تبقى محاولة لخلق واحة من الهدوء إلى حد ما.

بالنسبة لـ«مي» فإن القصص المسلية لأطفال «بي» الثلاثة: إيفا وزولا وإلسا وكذلك الرحلات العائلية إلى دورست أو التجول في هامبستيد هيث كانت مثل «ينبوع ماء في صحراء».

وظهرت مراسلات المرأتين في كتاب بعنوان «الحديث عن جين أوستن في بغداد» قدمته دار نشر بنجون، وهو على شاكلة كتاب «84 تشارنج كروس رود»، الذي ضم مراسلات استمرت 20 سنة بين هيلين هانف، وهي كاتبة أمريكية من نيويورك، وفرانك دويل وهو

صاحب مكتبة لندن. وقد أصبح الكتاب فيما بعد فيلماً من بطولة «آن بانكروفت» و«انتوني هوبكنز».

وبالنسبة لـ«مي»، فإن ما بدا فراراً فكرياً من فوضى الحرب قد أصبح طريقاً للهروب السليم، فقد جاءت الدفعة المقدمة من دار النشر لتمكنها من دعم نفسها وفي الوقت نفسه لكي تدرس للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة بيدفوردشير. وهنا مختارات من بعض الرسائل الإلكترونية التي تبادلتها «بي» و« مي» في زمن الحرب الطائفية في العراق.

رسالة في 14 /3 /2006

عزيزتي «بي»

هذا الصباح أستيقظت عند الساعة الرابعة صباحاً ليس لأنني من النوع الذي يستيقظ في وقت مبكر من النوم ولكن لحاجتي للاستحمام وتجفيف شعري قبل الذهاب إلى العمل. وعندما خرجت من الحمام انقطع التيار الكهربائي. وعند الساعة التاسعة صباحاً، اكتشفت بأنه ليس لدينا سوى القليل من البنزين. هل تعرفين أنني لم أذهب إلى محطة البنزين منذ الأيام الأولى للغزو؟ ومنذ ذلك الحين، ازدهرت السوق السوداء الخاصة بالبنزين حيث يقف الناس على الأرصفة علناً ليبيعوا أسطوانات الغاز وعبوات الكيروسين، التي نحتاجها لكننا لا نستطيع العثور عليها في أي مكان آخر. ونقوم بشراء البنزين من السوق السوداء وذلك لسببين: الأول هو أن محطات البنزين ليست آمنة، لأنها تشكل أهدافاً سهلة. كما أن الكثير من الناس الذين ينتظرون في طوابير طويلة

لقوا مصرعهم. والسبب الثاني هو أن بعض هذه المحطات تمزج المياه مع الوقود لتعويض الكمية المسروقة التي يتم بيعها في السوق السوداء، وهذا الخليط يدمر المحركات.

لقد تغيرت عادة تسوق الأطعمة أيضاً، فمنذ الغزو ووصول هذا العدد الكبير من النازحين، ظهرت إلى الوجود متاجر جديدة، ففي الأيام التي يكون فيها هناك حظر للتجول نضطر إلى البقاء في منطقتنا لأنه ليس لدينا أي خيار سوى أن نشتري من هذه المتاجر ومهما كانت نوعية المنتجات سيئة. أتذكر شراءنا للخبز التالف، والطماطم (البندورة) التالفة وغيرها من المنتجات، وجميعها كانت بنفس سعر الأطعمة الطازجة. نعم، إن الرئيس السابق (صدام حسين) كانت له أخطاء، لكننا كنا أفضل حالاً مما نحن عليه الآن. العراق الآن أرض تغرق في الدماء والفوضى.

محبتي، «مي» ..

وبعد ذلك تستمر «بي» و« مي» في الكتابة إلى بعضهما خلال صيف عام 2006، عندما وُلدت إلسا ابنة بي الثالثة.

رسالة في 2006/ 7/ 16

عزيزتي «بي»

مبروك، يجب أن تكوني في غاية السعادة ولكن أيضاً قد تكونين متعبة. وأتمنى لو أن الأمور من جانبي كما كانت من قبل في «أيام العز السيئة القديمة»، حينها كان باستطاعتي أن أرسل لك هدية صغيرة. ولكني، آسفة، لأنه من المستحيل القيام بذلك في الوقت الحاضر.

الحياة هنا مختلفة. والناس توقفوا عن القيام بنشاطات اجتماعية والزيارات أصبحت شحيحة. كانت لي صديقة تبعد عن مسكني مسافة نصف ساعة سيراً على الأقدام. وكنا أعتدنا على اللقاء في أغلب الأحيان. والآن أصبحنا نتحدث عبر هواتفنا النقالة وعند الضرورة، وفقط عندما أريد التأكد من أنها وعائلتها بخير في حالة انفجار قنبلة على جانب الطريق أو عند السماع أن سيارة مفخخة انفجرت على مقربة من منزلهما، ونفس الشيء تفعله هي معي.

كل شيء قد تغير، حتى حفلات الزفاف. لقد كانت هذه الحفلات تقام قبل الغزو في المساء، وعادة ما يبدأ العروسان شهر عسلهما بعد منتصف الليل تقريباً أو بعد ذلك. ويستقل العروسان سيارة مزينة ويقوم الضيوف باقتفاء أثرهما في طابور طويل من السيارات لأطول وقت ممكن. أتذكر أنني كنت أشاهد الناس ينزلون من سياراتهم عند التقاطعات المرورية بينما يكون الضوء الأحمر ثم يأخذون بالرقص من شدة الفرح الذي يعتريهم ثم يسارعون بالعودة إلى سياراتهم عندما تتحول الإشارة إلى اللون الأخضر.

أما الآن فإن حفلات الزواج تبدأ في وقت مبكر. وقد رأيت امرأة شابة ترتدي فستان السهرة والمجوهرات وهي على وشك الذهاب لحضور حفل زفاف. كانت تبدو سخيفة في النهار وهي على هذا الحال، ولكني لا يمكن أن ألومها، نحن جميعاً نعيش في خوف، لأن وقت المساء محفوف بالمخاطر. على أية حال، نحن لا نزال نتنفس، وشخصياً أحاول كتابة موضوع عن «قصة مدينتين». يرجى الكتابة؛ أفتقد الحضارة والسلام.

محبتي، «مي»..

عـــــــام

من بين أحد أكثر الجوانب إثارة للقلق في يوميات الحياة التي تنقلها «مي» بعد الغزو هو أسلوب الحياة الذي أصبح مقفلاً أمام النساء. كان العراق في السابق علمانياً، ولكن مع الفوضى في الشوارع أصبح الحكم وعلى نحو فعلى للمتدينين المتطرفين. كانت «مي» ترتدي من قبل ما يحلو لها. وبحلول عام 2006، أصبحت الكلمة في الشارع هي أن النساء اللواتي لم يغطين الرأس والذراعين سوف يتم قطع رأسهن. وبدت بعض الممارسات كصدى لتجاوزات الحماس الديني الذي كان موجوداً في أفغانستان. وفي إحدى المرات، تم إخبار أصحاب المتاجر في المنطقة التي تسكن فيها بأن لا يضعوا كلاً من الخيار والطماطم في نفس مكان العرض بحجة أن ذلك الأمر ينطوي على إيحاءات جنسية. وتقول «مي»: كنا نفترض أنه قد تم جلب الحرية والديمقراطية إلينا، ولكن الحرية تضيق في كل يوم. وذات مرة كانت سعيدة لذهابها إلى العمل حاسرة الرأس، لكنها في نهاية المطاف شعرت بأنها مضطرة لتغطية شعرها وذراعيها.

وعلى الرغم من أن طلابها كان يبدو عليهم الاستمتاع بمحاضرات أستاذتهم التي تتناول فيها رواية «كبرياء وهوى» لمؤلفتها البريطانية جين أوستن، إلا أن بعض الأدبيات الغربية كانت تتركهم في حيرة : «لقد قرؤوا الرواية ثم كانوا يضعونها في إطار الحلول التقليدية العربية. فتقول: على سبيل المثال، عندما أتحدث عن هستر برين كبطل في رواية الرسالة القرمزية لناثانيال هوثورن، لا يستطيع الطلبة أن يفهموا لماذا زوجها لم يقتل العاشقين بدلاً من السعي إلى الانتقام غير المباشر.

وخلال ذلك الوقت تقريباً، أي في أواخر عام 2006، خلال شهر رمضان المبارك، كتبت «مي» العبارة التالية : الصيام حتى المغرب. فأجابتها «بي» في رسالة جديدة:

رسالة في 2006/ 9/ 25

عزيزتي «مي»

لا أعتقد أن بإمكاني القيام بذلك. فأنا لا أستطيع العيش دونَ فطيرة الزبد الساخنة ومربى الفواكه. ربما تتذكرين مربى الفواكه؟ (يذكر أن مي عاشت في بريطانيا عندما كانت مراهقة)، إنه الشيء الذي دائماً أحب أن أعطيه إلى الأجانب على سبيل التجربة، وفي الغالب يجربونه وهم غير واثقين. في الواقع دائماً أبدأ يومي بشكل صحي حيث أتناول الكثير من الفاكهة والعصيدة مع الفتيات قبل الذهاب إلى المدرسة. ولكن بعد ذلك في المساء عندما أكون في حالة استرخاء، أحب تناول الآيس كريم والشوكولاتة، وأشياء أخرى مماثلة. هناك متجر تركي يقع عند الزاوية يبيعون فيه البقلاوة؛ التي عندما تعضينها سيخرج كل العسل منها.

محبتي، «بي».

عـــــــام

كان ذلك من بين العديد من عناصر المفاجأة في حواراتهما، ما دفع «مي» إلى أن تشير إلى أن من بين النتائج غير المتوقعة للحرب هي الزيادة في الوزن.

رسالة في 2006/ 10/ 5

عزيزتي «بي»

في ظل حظر التجول والمشاكل الأخرى يذهب الناس إلى المحلات التجارية لشراء كل شيء فيها. وعلينا أن نفعل الشيء نفسه، وفي الغالب نملأ المنزل بالسجائر وعلب الكوكاكولا والبقول الجافة والجبن والمربى والبطاطا وزيت الطبخ والطحين. لقد كان لي جسم متوازن قبل الحرب ولكن الآن فأنا حقاً بدينة لأني لا أستطيع التجول، أي أنه لا توجد حياة اجتماعية، إلا أن التمارين الوحيدة التي أمارسها هي أنني أقوم بتدريس طلبتي مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع. لدينا البقلاوة في معظم فصل الشتاء لكنها أمر لابد منه في شهر رمضان.

أمس جاء زوجي إلى المنزل مرعوباً لأنهم قتلوا شخصاً أمام عينيه. لم يمت الرجل لحظة إطلاق الرصاص عليه فقام وبدأ بالركض على غير هدى إلى أن انهار تماماً وسقط في وسط الشارع. لقد وقع هذا الحادث في يوم تم العثور فيه على 23 جثة أخرى في الحي. بالمناسبة، متى سيحين عيد ميلادك؟

محبتي، «مي»..

خاتمـــــة

استمرت المراسلات بينهما حتى أكتوبر عام 2008، عندما وصلت «مي» إلى بريطانيا. وقد استقرت مع زوجها «علي» في شقة في لوتون. وعلى الرغم من أنهم يعيشون في أمان الآن، إلا أن التحول لم يكن سهلاً. وتقول «مي»: أشتاق إلى بيتي في العراق،

كان لدينا وضع خاص، لأنك من هذه العائلة أو تلك فسيكون لديك احترامك. أما هنا، فلا أحد يعرفك، بل مجرد وجه آخر على متن الحافلة. وتضيف: عندما وصلنا كانت ملابسنا بائسة لأن ما يبدو على أنه يساير الموضة في بغداد بدا مستهلكا وخارج التاريخ هنا. لقد كانت «مي» تتابع تحقيق «جون شيلكوت» وهي غير مصدقة لأن هذا التحقيق حول كيفية اتخاذ قرار الذهاب إلى الحرب يجعل العالم بعيداً عن الرعب الذي مورس على عتبة بابها.

وتضيف «مي» نحن في العراق لدينا قول شائع تفسيره أن الشخص الذي معدته ممتلئة لا يعرف ما يمر به الفقير والإنسان الجائع، ثم تضيف: من الذي أعطى لهم الحق في تحطيم حياتي؟ لماذا أفقد بيتي؟ ومن الواضح إن «مي» تتبنى فكرة التشكيك في إصرار توني بلير على أنه كان لابد من إزالة صدام. وتقول: إن الحياة في العراق لم تكن مثالية ولكن ليس معظم الناس سياسيين، وأولئك الذين غادروا العراق كانوا ضد صدام حسين، كانوا مبالغين في قولهم، كم كانت الحياة سيئة خدمة لغاياتهم الخاصة». ولا يزال منزل «مي» في بغداد فارغاً، لكنها لا تعرف ما إذا كانت ستعود. كما أن تأشيرتها الدراسية كطالبة في بريطانيا سارية المفعول لمدة ثلاث سنوات ولكنها حالياً قضت ما يقرب من نصف مدتها هنا. وتختم «مي» حديثها: «هذا خوفي الجديد وهو ماذا سيحدث بعد ذلك»؟.

***

دماغها امرأة غيــّرت

يمكن القول وبشكل قاطع أن «باربارا اروسميث يونج» امرأة ذات منجز استثنائي. ففي السنوات الـ 30 الماضية كانت هذه المرأة رائدة لمجموعة من العلاجات الجذرية للأطفال والبالغين الذين يعانون من صعوبات في التعلم. كما أن التمارين التي أوجدتها لتدريب الدماغ الذي يشكو من خمول، قد اعتُمدَتْ في جميع أنحاء العالم. ومنذ افتتاح مدرستها الأولى لتعليم الأطفال الذين يشكون من صعوبات في التعلم في عام 1980 ساعدت باربارا أكثر من 4 آلاف طالب في التغلب على نقاط ضعفهم المعرفي ومعاناتهم الذهنية.

كانت «باربارا» تحلم في أن يحصل كل طفل، وفي وقت مبكر، على مجموعة من الاختبارات المعرفية التي من شأنها أن تحدد الصعوبات المحتملة التي تواجهه. وكانت بدايتها على المستوى الشخصي، عندما أدركت «باربارا» أن جزءًا من دماغها لا يعمل بشكل صحيح وهو الأمر الذي جعلها تضع سلسلة من التدريبات المعرفية لتطويره. وما كان من النتائج التي تحققت إلا أن تغير حياتها، وهو ما جعلها تعكف على مساعدة الآلاف من الأطفال الذين يعانون من صعوبات في التعلم من خلال مدارسها التي انتشرت في كندا والولايات المتحدة.

ذكريات مؤثرة

تعرضت باربارا لحادثة من ذلك النوع الذي يبقي الذكريات ماثلة ولا تغادر أبداً. فحينما كانت في الصف الأول الابتدائي سمعت معلمتها في مدرسة أونتاريو الابتدائية في كندا تخبر والدتها بحضورها أن ابنتها تعاني نوعًا من «التخلف العقلي»، وأنها لن تكون قادرة على التعلم. غير أن باربارا أثبتت العكس وأصبحت تقف الآن إلى جانب الأطفال الذين يشكون من صعوبات في التعلم وعلى وجه التحديد في التغلب على التشخيص المرضي الذي عانت منه، وبطبيعة الحال، يمكنها اليوم أن تضحك على ما قالته معلمتها بحقها. لكنها لم تفعل ذلك، بل عملت ولا تزال تعمل من أجل أن تتغلب على الضعف العقلي.

وتتحدث باربارا بطلاقة وبحماس الشباب وتتمتع بسعة اطلاع كبيرة رغم أنها من مواليد1953 وتحمل شهادة الماجستير في علم النفس المدرسي. ونشرت كتابًا نال الثناء على نطاق واسع، واعتبر حجر الأساس في هذا المجال، وهو من الكتب الرصينة في محتواها وحمل عنوان «المرأة التي غيرت دماغها». ولكن عند العودة مرة أخرى إلى تجربتها في المدرسة، نجد أنها في الواقع عاشت حتى منتصف العشرينيات حالة من الشقاء والمعاناة والحيرة الشديدة، وشكت من الاكتئاب في كثير من الأحيان. ولم تكن تعرف ما تعاني منه بالضبط.

ذكاء وصعوبات

على الجانب الآخر، كانت ذكية جداً، وتتمتع بذاكرة سمعية وبصرية شبه كاملة. وتقول «باربارا»: كان بإمكاني أن استمع إلى أخبار

الساعة السادسة، وأن أعيدها كلمة بعد كلمة في الساعة الحادية عشرة. وبإمكاني أن أَفتح كتاباً، وأقرأ الجملة الأولى والثانية والثالثة وكأني أرى مشهداً مصوراً. وبإمكاني حفظ كتاب التمارين برمته لكني من ناحية أخرى كنت بلهاء ولم أكن أفهم شيئاً لأن المعنى لا يتبلور إطلاقاً بل إن كل شيء مجزأ ومقطع الأوصال.

وتضيف: بإمكاني أن أقرأ سيناريوهات الأفلام عن ظهر قلب، ولكني غير قادرة على فهم العلاقة بين عقارب الساعة بحيث لا أستطيع أن أخبر الوقت للآخرين. وحتى في الامتحانات، حصلت على درجة 100٪ في كثير من الأحيان. ولكن عندما تنطوي الأسئلة على نوع من المنطق، أو حل لغز ما أو تتطلب ربطاً، وتفسيراً، أو عندما تضطر ببساطة إلى استحضار معلومات خاطئة من ذاكرتها، فإنها تحصل على درجة 1٪. وتقول: إن المعلمين لم يفهموا السر في ذلك، وفي المدرسة كنت أتلقى الإنذارات بسبب عدم قدرتي على المحاولة. وأعتقد أن المعلمين كانوا في الواقع يظنون أنني لا أحاول.

وقامت والدتها، التي تعمل مدرسة، بوضع سلسلة من بطاقات فلاش مع الأرقام والحروف، وبفضل الكثير من العمل الشاق، استطاعت أن تتحقق من معرفة القراءة والكتابة والحساب، بهذا النوع من التمارين. وتقول باربارا: لفترة طويلة، ظللت أعكس تقريباً الحروف والأرقام، ولا أستطيع أن أربط المعنى بالرموز. وفي المدرسة الثانوية، وفيما بعد في مرحلة الجامعة، تحديت العديد من صعوبات التعلم وذلك عن طريق العمل لمدة 20 ساعة في اليوم. وتضيف: اعتدت على الاختباء

في الحمام عندما يأتي حراس الأمن إلى مكتبة الكلية في الليل، لأعود بعد ذهابهم من أجل الاستمرار في مهمتي.

العثور على الخلل

جاء التقدم الحقيقي أو الانقلاب عندما بلغ عمرها 26 عامًا. حينما قدم طالبٌ لها زميل كتاباً من تأليف العالم الروسي ألكسندر لوريا، وهو رائد دراسات الأحاسيس المترافقة في الذاكرة البشرية والمتخصص في علم النفس العصبي، والذي حمل عنوان: الرجل والعالم الممزق. ويتضمن الكتاب بحث لوريا وتأملاته حول كتابات جندي روسي ذكي للغاية، يدعى ليوفازاز تيسيكي، والذي أصيب بعيار ناري في الدماغ في معركة سمولنسك في عام 1943، وسجلت تفاصيل كثيرة عن طبيعة إعاقته فيما بعد.

وتقول باربارا: لأول مرة تعرفت على شخص ما يصف بالضبط ما عشته. وكانت توصيفاته مشابهة لما أشعر به، حيث كان يعيش حياته بمرارة، والصعوبات التي يواجهها هي نفسها، فمثلاً إنه لا يستطيع معرفة الوقت من خلال الساعة، ولا يمكن أن يستوعب الأكبر والأصغر في الحجم دون أن يرسم الصور، ولا يستطيع معرفة الفرق بين الجمل كما في حالة قلب الجملة التالية: «يطارد الصبي الكلب» و«يطارد الكلب الصبي» وبدأت أرى بأن هناك مساحة في ذهني قد تكون لا تعمل.

ومن خلال قراءتها للبحوث التي كتبها العالم الروسي لوريا، علمت باربارا أن الرصاصة التي أصابت ليوفازاز تيسيكي قد استقرت في المنطقة اليسرى الجدارية الصدغية القذالية من رأسه، وكانت تلك

النقطة مفصلية من حيث المبدأ، لأن جميع المعلومات الواردة من الفصوص المسؤولة عن البصر، واللغة، والصوت واللمس يتم توليفها وتحليلها لتحدث الشعور. وقد أدركت باربارا أنها، المنطقة ذاتها من الدماغ التي تشكو من خلل فيها منذ ولادتها.

تطور ونمو الدماغ

ومن ثم قرأت دراسة لباحث أمريكي يدعى مارك روزنزويج، اكتشف أن الفئران المختبرية تقدم بيئة غنية ومحفزة، بوجود عجلات اللعب والدمى، وتتطور أدمغتها على نحو أكثر من عقول تلك الفئران التي يحتفظ بها في أقفاص عارية. وخلص روزنزويج إلى أن الدماغ يستمر في التطور والنمو، وإعادة تشكيل نفسه على أساس تجارب الحياة، بدلاً من أن يكون ثابتًا بالحالة التي هو عليها عند الولادة وهو مفهوم يعرف باسم المرونة العصبية. وهنا قررت باربارا أنه إذا كان بإمكان أدمغة الفئران أن تنمو على نحو أكبر وأفضل، فهي يمكن أن تصل هي إلى ذلك.

وهكذا بدأت بتطبيق نظرية روزنزويج ووضعتها قيد التجربة من خلال ابتكار تمارين تحفيز الدماغ لنفسها والتي من شأنها أن تُشَغل أجزاء دماغها التي لا تعمل. وبمساعدة صديقتها رسمت على 100 بطاقة وجه الساعة، وكل واحدة كانت تعطي وقتاً مختلفاً، وكتبت الوقت الموجود في كل مرة على ظهر البطاقة. ومن ثم بدأت في محاولة إخبار الوقت من كل بطاقة، والتحقق في كل مرة لمعرفة ما إذا أعطت الوقت الصحيح أم لا. وفعلت ذلك من ثماني ساعات إلى 10 ساعات يوميّاً. وبدأت تشعر

تدريجيّاً بأنها أسرع وأكثر دقة وبذلك استطاعت أن تحفز إحدى المناطق الضعيفة في دماغها. وبعد ذلك أضافت المزيد، لكي تجعل هذه المهمة أكثر صعوبة. ثم أكملت التجربة على أيام الأسبوع بأكملها.

وتقول: «عانيت من الإرهاق الذهني الذي لم أعرف مثله في حياتي وهو الأمر الذي جعلني أتيقن أن شيئاً ما كان يحدث. وبمرور الوقت، حيث فعلت ذلك لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر، شعرت حقاً أن هناك شيئاً ما قد تَغَير، بل إن هناك تغييراً جذرياً في دماغي، يتيح لي المعالجة وفهم المعلومات. ولأول مرة استطعت أن أجلس وأن أشاهد فيلماً وثائقياً وأفهم محتواه، وكذلك بدأت أقرأ الكتب الفلسفية ذات الأفكار المعقدة، وكان من المستحيل أن أفهم شيئاً فيها قبل ذلك، لكني استطعت أن أفهمها الآن. وقرأت صفحات من عشرة كتب، وكنت أفهم كل جزئية بسيطة فيها وشعرت أن التطور الذي لاحظته بدا كمن يتحول من الظلمات إلى النور».!

تعميم التجربة

وضعت باربارا المزيد من التمارين، لأجزاء مختلفة من دماغها، ووجدت أنها بدأت تعمل أيضاً. وفي نهاية المطاف أخذت في العمل بشكل طبيعي. وكان العمل الذي بدأته خلاقاً ولم يقتصر على نفسها فقط، وتقول: في ذلك الوقت، تركز جميع العمل حول صعوبات التعلم باعتباره أمراً تعويضيا من خلال تجزئة العمل وتبسيطه إلى خطوات صغيرة، ونقل المعلومات إلى قطع أصغر، مع مساعدة الطلاب باستخدام الآلات الكاتبة وأجهزة التسجيل. وكل شيء قد بدأ

من منطلق أن المتعلم غير قابل للتغيير، ولكن كنت أشاهد، وأثبت، أنه يمكن تغيير المتعلم.

قررت باربارا أن تواجه التقبل الضئيل أو المعدوم لأفكارها، من خلال القيام بالمهمة بنفسها، لذلك أسست مدرستها الأولى في تورنتو في عام 1980، ولديها الآن 35 مدرسة في كندا والولايات المتحدة، ومعظمها تعمل تحت تراخيص صارمة. وبإمكان الطلاب أن يدخلوا في هذه المدارس التخصصية لأكثر من أربع سنوات من أجل معالجة الضعف الذي يشكون منه، حيث يقدم ذلك عبر برنامج فردي متطور يركز على تدريب الدماغ. وقد وضعت هي وزملاؤها الموظفون التدريبات المعرفية التي أثبتت فعاليتها في مساعدة 19 وظيفة من الوظائف المعرفية المتميزة والأساسية في القراءة والكتابة والرياضيات، والفهم العام، والتفكير المنطقي، والذاكرة البصرية أو المعالجة السمعية.

وتقول باربارا: غالباً ما جاء إلينا أطفال يتم تشخيص حالاتهم باضطراب نقص التركيز، وعسر القراءة، أو خلل وظيفي ومتلازمة اسبرجر لكننا في الواقع نرغب في الحصول على ما دون تلك التسميات، ومعظمهم يعانون من أكثر من ضعف واحد وبالنتيجة فإنهم يعانون من هذا النقص الذي يعيشونه. وقد حضر الآلاف من الأطفال الذين تم تشخيص حالاتهم في صعوبة التعلم كعدم القدرة على القراءة أو خلل في الكتابة، حيث أبعدوا عن مقاعد الدراسة بدعوى أنه من المستحيل أن يتم تعليمهم. حضر هؤلاء إلى مدارس «باربارا» لمدة

ثلاث أو أربع سنوات، وعادوا إلى المدارس الاعتيادية، وواصلوا نجاحهم الأكاديمي والمهني. وتضيف: إنهم في الواقع يعانون من ضعف وخمول في مناطق معينة من الدماغ أو عسر القراءة وليس لديهم سوى بضع قطع معرفية لا تعمل كما يجب.

وعلى مدى خمس أو ست سنوات من مطلع الألفية، بدأت المؤسسات التربوية المتخصصة بعلم النفس التربوي باتخاذ المزيد من الملاحظات من العمل الذي تقوم به باربارا. وأشاد الأطباء النفسيون والكتاب المتخصصون في هذا المجال بما حققته باربارا بصفتها رائدة في ذلك التخصص الفريد، لكونه مفصلاً واعداً للغاية في المرونة العصبية. ويبقى حلمها أن يقوم كل طفل ببعض الأعمال المعرفية في وقت مبكر كأن يكون في سن الخامسة أو السادسة لالتقاط وتصحيح الصعوبات المحتملة.

وتختتم باربارا: إن سبب الكثير من المعاناة البشرية هو هذا التفاوت المعرفي لمتطلبات المهمة، كما أن الحصول على التشخيص الخاطئ جعل العديد من الأطفال يفقدون فرصتهم الحقيقية، فضلاً عن أن الكثير من الناس يتخذون قرارات خاطئة. وبالتالي فإن الكثير منهم ينتهون إلى حياة وأعمال تم اختيارها لهم، ولم يكن لهم دور في هذا الاختيار بسبب القيود المعرفية التي يمكن أن يتم تحديدها وتعزيزها، لذا فمن الممكن تغيير الدماغ.

***

غـجـريـة وروائية

ولدت «روكسي فريمان» في عام 1979 وكبرت وهي تتنقل بين أيرلندا وأنجلترا في عربة تجرها الخيول التقليدية مع كل من أمها وأبيها وإخوتها الخمسة. ورغم أن قسوة الحياة واضحة في تفاصيلها اليومية لكن حرية الطفولة التي قضتها جعلتها تتناسى الألم وتعيش في وئام تام مع الطبيعة، وبسبب حياة الغجر التي هي حياة تنقل دائم فلم تكن روكسي تعرف شيئاً عن الحصص الدراسية، لكنها وقبل أن تبلغ العاشرة من العمر عرفت جيداً كيف تحلب الماعز وتمتطي الخيل وتطهو العشاء على موقد النار في الهواء الطلق لجميع أفراد الأسرة.

كانت حياة العائلة المبكرة مثالية حتى أحضرهم والدهم إلى أنجلترا، حيث واجهوا العداء والتحامل من المحيطين بهم، ورغم الصعوبات التي واجهتها روكسي قادها شغفها للفلامنكو والموسيقى التقليدية إلى أن تتطور وتصبح راقصة وهي المهنة التي أخذتها إلى جميع أنحاء العالم. أما قصتها الجميلة التي كتبتها فهي صورة صريحة عن حياة النساء والفتيات اللواتي يعشن في مجتمعات الغجر، وأصبحت روكسي حالياً كاتبة وصحفية مستقلة وتنشر في الكثير من الصحف من بينها الإندبندنت، والصن، والميل أون صنداي، وعدد كبير من المجلات، وتعد روكسي مساهمة دائمة في صحيفة الجارديان

وتتناول مجموعة واسعة من المواضيع، كما أنها نشرت كتاباً حمل عنوان (الغجرية الصغيرة) وهو من بين أحد الكتب الأكثر مبيعاً والذي يتحدث عن طفولتها وذكرياتها مع حياة الغجر.

لم تذهب إلى مدرسة

لم تذهب «روكسي فريمان» إلى مدرسة بل عاشت في عربة يجرها الحصان وأكلت من نباتات الأرض، غير أنها وبعد سنوات عجاف امتلكت شهادة دراسية ومنزلاً ومهنة، وكانت المرة الأولى التي دخلت فيها روكسي إلى الفصل الدراسي عندما كان عمرها 22 عاماً. وقد بدأت الدراسة في فصول الجامعة ولم يكن لديها أي مؤهل يمكن أن تضعه إلى جوار اسمها. وتتذكر روكسي تلك الأيام قائلة: «أعتقد أن الجميع افترض بأنني غبية أو تسربت من المدرسة لأن تاريخ سجلي التعليمي في نموذج الطلب قدمته فارغاً». كانت روكسي تشعر بالرعب من الآخرين عندما يعرفون أنها لم تدخل المدرسة قط، وتوضح قائلة: «كنت أعتقد بأن الأمر يقتضي مني قول الحقيقة».

وكان منزلها في مرحلة الطفولة عبارة عن عربة يجرها حصان وبدلاً من تعلم الكتابة والقراءة أمضت سنوات طفولتها المبكرة تجوب المستنقعات والأهوار في أيرلندا متحررة من أغلال المدرسة. وتقول: «يعتقد معظم الناس أننا من الغجر ومع ذلك فنحن في الواقع لم نكن غجراً بالمعنى الحقيقي للكلمة، كما أن والديّ لم يولدا في الحياة التي عشناها بل كانا قد اختارا تلك الحياة بمحض إرادتيهما.

وفي الحقيقة أن والدتها «دكسي» تنحدر من عائلة من الطبقة الراقية في أمريكا حيث منحتها بيئتها التي ترعرعت فيها بولاية بوسطن مزايا كثيرة، أما والد روكسي السيد «ديك» فهو الحفيد الأكبر لمربي خيول معروف ولكنه تربى تربية صارمة من قبل والدته في منزل عادي في فافرشيم في كينت، وقد تمرد هذا الولد في مراهقته وتكون لديه شعور آثر من خلاله الانسحاب نحو حياة البدو الرحل.

التمرد على الحياة التقليدية

لقد التقى والد روكسي بوالدتها عندما كان عمرها 17 عاماً وكان ذلك أثناء إحدى الجولات التي تقوم بها حول أيرلندا برفقة حاملي حقائب الظهر. ومن هنا قرر الاثنان التخلص من كل بقايا الحياة التقليدية. وتضيف روكسي: كانا يريدان العيش خارج المجتمع المدني ويكونان قريبين من الطبيعة، لقد حلما أن يربيانا في بيئة حرة بعيداً عن القيود والأحكام المسبقة.

وفي ظل هذه الحياة القريبة من الطبيعة البكر كان على روكسي كطفلة أن تشارك العربة المكتظة مع والديها وشقيقها رولين وشقيقاتها الأربع، ولم يكن لديها لعب أطفال، وتمتلك القليل من الملابس وفكرة متواضعة جداً عما يحدث في العالم الخارجي، أما مخيمهم الذي يقع عند سكة القطار المهجورة في تيبيراري فهو العالم الطبيعي الذي لثمت منه تعليمها الأوَلي.

وعندما بلغت روكسي السابعة انتقلت العائلة إلى أنجلترا وأقاموا مخيماً مع عدد من العربات في حقل خارج قرية نورفولك الصغيرة

في أبوتس ثورب، حيث كان والدها «ديك» يحصل على دخل معيشي متدن كمرب للخيول، وكثيراً ما اضطر أطفالهم إلى العمل في قطف ثمار الفاكهة أو الخضار لصالح المزارعين لزيادة دخل والدهما الهزيل وعندما يكون الدخل في أحد مواسم الصيف قليلاً جداً يعيش أفراد العائلة بشكل كامل تقريباً على الفطر.

ولدت روكسي في حياة كانت تعيشها على بساطتها من حيث العناصر الأساسية للحياة، حيث تجد أن الأسرة تطبخ وترفه عن نفسها وتستحم في الهواء الطلق أيضاً. وتعترف روكسي: على الرغم من أن الغسيل لم يكن أولوية كبيرة لكن والدتي كانت تحاول دائماً إبقاءنا جميعاً نظيفين رغم أنه لم يكن لدينا حمام.

حياة الطبيعة

تتكون وجبات الطعام بشكل رئيسي من الخضراوات والفاكهة والبقول، ويعتمدون كليًّا على العلاجات الطبيعية في حالات المرض، ويعد التعامل مع البرد والعزلة من الأمور غير السهلة. لقد فقدت والدتها طفلين أحدهما في الولادة وذلك عندما وضعته والحبل السري ملتف حول رقبته والآخر توفي وهو صغير نتيجة إصابته بالتهاب رئوي وكان عمره شهر واحد فقط.

ويصر الأب «ديك» على أن يقوم الأطفال بسحب حاجياتهم بأنفسهم حول المخيم وتقول روكسي: كان على أن أقوم بجلب الماء والطهي على نار في العراء وتغيير الحفاضات، وحالما ننتهي من القيام بالوظائف المناطة بنا ننطلق في سباق لتسلق الأشجار أو نأخذ بالغناء

والرقص ولأنه لم يكن لدينا تلفزيون كنا نقضي الكثير من الوقت في لعب الورق بحيث أصبحت ضليعة في كيفية كسب الرهانات.

وعلى الرغم من أن اثنتين من شقيقاتها قررتا الذهاب إلى المدرسة لم ترغب روكسي بأن تذهب إليها مفضلة حضور دروس الفلامنكو، وتقول روكسي: تعرضت شقيقتي الكبرى «إيسي» لمضايقات شديدة في المدرسة لأنها لم تكن مرتبة كما أن الزي المدرسي حصلت عليه من متجر خيري. وتدرك روكسي أنهم يختلفون عن الشباب ممن هم في سنهم وتقول: إن الأطفال في القرية يرمون الحجارة علينا وهذا ما جعلنا أقرب إلى بعض.

شغف القراءة

ورغم ترددها بالذهاب إلى المدرسة لكن ذلك تطور لدى روكسي إلى شغف نحو قراءة الكتب، وتعلمت القراءة وهي في سن التاسعة وكان جداها الأمريكيان الأغنياء اللذان بقيا على اتصال مع بنات ابنتهما يقومان بإرسال الروايات والكتب إليها، ومن جانبها كانت تلتهم تلك الروايات، وتقول روكسي: إن القراءة كانت تعطيني وقتاً للهدوء يجعلني أشعر بالراحة.

وقدمت الكتب منفذاً إلى روكسي للهروب من اثنتين من الغيوم السوداء التي أفسدت سنوات طفولتها التي وصفتها بأنها شاعرية لولا وقوع حادثتين فيها، الحدث الأول خيانة والدها الزوجية المستمرة لوالدتها. والانتكاسة الثانية من صديق والدها القديم «توني بيرد» أو العم توني كما تعرفه روكسي وهو صياد سابق كان يظهر عكس ما يبطن وكان يبقى في المخيم مع العائلة لعدة أشهر لغرض معين وكان الجميع يحبون «بيرد» لكنه منحرف جنسياً وقد اعتدى سراً على روكسي لمدة أربع سنوات.

ولم يعرف بمحنتها واعتداء العم بيرد عليها إلا بعد فترة طويلة وذلك عندما عاد إلى المخيم بعد سنوات قضاها في الخارج. كان لروكسي ثلاث أخوات اثنتان تعتبران أنصاف شقيقات، كانت شقيقتا روكسي الصغيرتان (واندا وزيتا) لم تصلا إلى سن المراهقة بعد وأدركت أن عليها التحدث عن محنتها من أجل حمايتهما. وتقول روكسي: لقد أدرك والداي أنهما كانا ساذجين جداً وواثقين به دون مبرر. إنها من الفترات المؤذية جداً.

واتصلت والدتها بالشرطة وبالفعل تم تعقب بيرد إلى أن تم إلقاء القبض عليه وحكم عليه بالسجن لسوء المعاملة، وتضيف روكسي: بالطبع كنت لا أرغب في أن يحدث ذلك ولكني لم أعتقد أنه سيكون له تأثير طويل المدى على حياتي وأنا ممتنة للتربية التي منحني إياها والداي، لاسيما أنني كنت متوازنة جسدياً وعاطفياً ومنحاني الفرصة في اكتشاف اهتماماتي وأتطور بنقل خطاي نحو الأمام.

الفلامنكو والدراسة

ظلت الرغبة الرئيسية لدى روكسي ولسنوات عديدة «الفلامنكو». وقد طافت العالم وهي في سن المراهقة وحينما كانت تعمل كراقصة للفلامنكو في مطلع العشرينيات، لكنها عندما بلغت سن الثانية والعشرين أدركت أنها تريد شيئاً من التعليم واتصلت بالجامعة المحلية من أجل الدراسة والتي بدورها منحتها مكاناً في كورس دراسي تأهيلي لمدة سنة واحدة.

وتقول روكسي: كانت تجربتي كفاحاً، ومع ذلك لا تزال لديّ ثغرات أساسية في المعرفة، وعلى سبيل المثال لم أعرف متى وقعت

معركة هاستينغز أو كيفية استخدام الآلة الحاسبة، وفي بعض المواقف كنت لا أعتقد أنني سوف أتمكن من هذه الأشياء، ومع ذلك فإنها جنت ثمار جهدها وتصميمها الدائم حيث حصلت روكسي على شهادة البكالوريوس في الإدارة والسياسة الأوروبية من الجامعة المفتوحة، وحضر كل من والديها (ديك ودكسي)، اللذين تطلقا وانفصلا، لمشاهدة حفل تخرج ابنتهما.

وأقدمت روكسي على تجربة أخرى مثيرة حيث تدربت كصحفية، كما أنهت كتابها الأول والذي قدمت فيه خلاصة تجاربها الحياتية فضلاً عن أسفارها حول العالم عندما كانت تجوب الأماكن كحاملة حقائب. وتضيف روكسي: إن الناس تكاد تكون مفتونة بثقافة الغجر ولكن هناك الكثير من المبالغة في ذلك، وهناك فقط أقلية صغيرة جداً لديها مثل ذلك الذي حصل في فيلم «حفل زفافي الغجري الكبير».

وحتى يومنا هذا فإن والديها ما زالا رُحلاً في حياتهما لكن بقية أفراد الأسرة يعيشون في منازل ولديها أخت واحدة تعمل مصورة وأخرى معلمة يوجا وثالثة زميلة في إحدى الجامعات وبالتأكيد لا يبدو أن تربيتهن أو نشأتهن غير العادية قد أعاقتهن أو تمكنت من أن توقف طموحاتهن.

وتعيش روكسي الآن في ريف ايست ساسكس مع شريك حياتها الفرنسي أرنو، لكنها تجد صعوبة في الاستقرار المكاني، وتقول وهي ضاحكة: لقد غيرنا مكاننا خمس مرات في السنوات الثلاث الماضية .. وما زال الترحال والسفر هاجساً.

جاسوسة المشاهير

بدأت الشابة «ريبيكا جين» عملها في وكالتها التخصصية حينما أصبحت على المحك وذلك عندما عرفت أن زوجها يقيم علاقة مع امرأة أخرى، وبعد ذلك ذاع صيتها وصار بين زبائنها نساء كثيرات من بينهن زوجات مشاهير وزوجات لاعبي كرة قدم معروفين في الدوري الإنجليزي وغيرهن من النساء. وترى ريبيكا، التي يعمل معها فريق من المساعدين والمرافقات، أن المرأة تستطيع لعب دور المخبر السري بشكل تتفوق فيه حتى على الرجل. ومن ناحية المظهر، فإن هندام وأناقة ريبيكا وفريق عملها لا يقل عن أي من فتيات المدينة، حيث ترى الاهتمام بالمظهر من الأمور المكملة للعمل.

وخلال ممارستها لوظيفتها كمخبر سري حاولت ريبيكا أن يبدو موقفها طبيعياً عندما تندس ومن معها من مساعداتها في الأماكن التي يتواجد فيها المشاهير حتى لا تثير أي اهتمام. وفي المرحلة التالية تبدأ بتوظيف إمكانياتها في الوصول إلى ما تبحث عنه وتتعقبه، وحينما يكون الهدف من مرتادي الأماكن التي يعتقد شخصياً أنها بعيدة عن عيون زوجته أو شريكة حياته تتصرف بحنكة الخبير، كما أنها تدرك أن الكثيرين يأتون لهذه الأماكن من أجل تبادل القيل والقال وما يتردد من شائعات أو أقاويل وهذا ما يعطيها أول الخيط لبلوغ مبتغاها.

ومن المؤكد أن الأقاويل تقع في صلب اهتمام معظم الأشخاص الذين يترددون على مثل هذه الأماكن، فكيف الحال بالنسبة لريبيكا التي هي في الأساس مخبر خاص تقوم بوظيفة سرية للقبض على رجل خائن بالجرم المشهود بناء على طلب من زوجته.

لقد دربت ريبيكا عينيها لتكون في غاية الحذر عندما تلاحق لاعبي كرة قدم الدوري الممتاز البريطاني على سبيل المثال، وتحاول الجلوس في زاوية مقابلة للهدف، وعادة ما تفضل الطاولات التي تحجبها ظلمة المكان حتى لا تسمح لأحد أن يراها أو أن يشخص ما تقوم به. وعلى الطاولة الخاصة بها تضع ريبيكا كاميرا فيديو صغيرة غير مرئية للناظر لتلتقط وتسجل كل لحظة من لحظات أهدافها، خصوصاً حينما يتبادل الشخصية المشهورة أو الهدف الذي تتعقبه القبلات واللحظات الرومانسية مع امرأة ما.

اكتشافها خيانة زوجها

وتقول ريبيكا التي ما زالت شابة في مقتبل العمر: رغم ما يبدو من أنها قد تكون وظيفة قليلة العائد، إلا أننا نتعاقد مع الكثير من الزبائن لأجل متابعة أهداف للاشتباه في احتمالية القيام بأفعال الخيانة الزوجية في المقام الأول. لقد أسست ريبيكا التي كانت تعمل في السابق في مجال تطوير العقارات، وكالة المرأة المخبر في عام 2009 بعد الانفصال عن زوجها الذي كان يخونها عندما كانت حاملاً بابنتهما. وكان لقصتها الشخصية، التي صدرت ضمن سلسلة من الروايات، صدى حيث كانت من بين الكتب الأكثر مبيعاً، وتناولت القصة جهود امرأة إفريقية قامت بتأسيس وكالتها الخاصة.

وتوضح ريبيكا: «حاولت استئجار محقق لمتابعة زوجي لكنه وبعد أن قضى عدة أشهر قال لي إنني أشكو من جنون العظمة، ولكن في الواقع وجدته فقط غير متعاطف معي، وأنه من المحققين الذكور الراغبين بالحصول على الأجور الباهظة فقط، لذلك قررت أن أتحقق من علاقات زوجي المؤقتة بنفسي، من خلال ملاحقته للحصول على دليل الخيانة الذي كنت بحاجة إليه. وخلال عملي الانفرادي في تعقب زوجي وجدت فجوة في السوق تتلخص في فهم المخبرات الإناث لمسألة تقاضي أتعابهن بالساعة في حين أن الزبون ينظر إلى قيمة ما يحصل عليه من معلومات حتى يدفع مالا مقابل ذلك».

لقد سعت ريبيكا للحصول على المساعدة من مخبرين محترمين لتعيد تدريب وتأهيل نفسها لتكون «مس ماربل»[1] العصر الحديث. وبعد ثلاث سنوات من عملها أصبح لديها مكاتب في لندن ومانشستر وستوكهولم، وتوظف تحت خدمتها حوالي 20 فتاة في المملكة المتحدة ليعملن في وقت واحد لتلبية طلبات الزبائن. ويتولى مكتبها مئات الحالات في السنة ومن جميع أنحاء البلاد وخارجها، وكانت قد قضت أسبوعين في إيطاليا لتتعقب رجلاً يشتبه في أنه كان يخون زوجته حينما يكون في رحلة لإدارة أعماله التجارية.

المرأة أفضل من الرجل

ويمكن للنساء المخبرات العاملات مع ريبيكا جمع شمل الأحباء الذين افترقوا منذ فترة طويلة وكذلك التحقق بالحجة والدليل عن الحيل

(1) «مس ماربل» شخصية خيالية ظهرت في 12 رواية من الروايات البوليسية للكاتبة الإنجليزية أجاثا كريستي.

الصبيانية المتبعة، وتوفير ما يسمى بمصائد العسل (مصائد تستخدم عبر الإنترنت وبشكل متزايد عبر مواقع التواصل الاجتماعي) من خلال مخبر يعمل كطعم للرجال أو النساء باستخدام أساليب جذب الانتباه. ومع ذلك فإن الميزة الأساسية في الخدمة هي المراقبة، حيث يتم رصد كل خطوة يقوم بها الشخص لمعرفة ما الذي يقوم به حقاً، ويمتد الأمر في التعقب إلى التقاط الصور وتسجيل لقطات الفيديو كدليل.

وكما يبدو فإن العلاقات الغرامية مزدهرة في ظل وجود عدد لا يحصى من الرجال والنساء المشبوهين، وبالتالي يتم توظيف فريق ريبيكا لتعقب الزوج أو الشريك بحثاً عن الحقيقة. كما أن زبائنها تتراوح أعمارهم ما بين الثلاثينيات وحتى السبعينيات، ويبلغ متوسط حالات الانفصال في القضايا التي تتابعها 70 في المائة عند النساء و30 في المائة عند الرجال.

وتقول ريبيكا التي تزوجت مرة ثانية من ضابط شرطة ولديها طفل منه: «معظم الزبائن يقولون إنهم يشعرون بمزيد من الراحة حينما يتحدثون إلى امرأة تعمل مخبراً لصالح الإناث، ويؤكدون أننا ودودات ومتعاطفات. كما إن النساء يقمن بمراقبة رائعة لأننا بالفطرة متمكنات من ذلك، ولأن المرأة بطبيعتها حادة الإدراك وفضولية ودقيقة الملاحظة، بالإضافة إلى أننا كنساء لا نثير الشكوك حينما نمارس دور المخبر، حيث نتعقب الهدف، الشخص الذي تم استئجارنا لتعقبه، ونتحقق من تصرفاته لأننا نبدو كأي امرأة عادية، فلا أحد يشك في شيء، في حين سرعان ما تثار الشكوك فيما لو لوحظ ثمة رجل ما في الشارع أو داخل السيارة».

ويذكر أن كل الأساليب والطرق التي تستخدمها ريبيكا وفريقها هي قانونية بحتة وبعيدة عن أي شبهات أخرى. وتعترف ريبيكا: « ثمة معضلات أخلاقية، لوجود أناس دائماً يقولون نحن نريد أن نحصل على المال حتى لو كان على حساب تخريب البيوت وعلاقات الأزواج، لذلك أحياناً أسأل نفسي عما نقوم به. لكني أخلص دائماً إلى استنتاج مفاده أننا نقوم بتقديم خدمة قَيمة تنطوي على التعاطف مع المرأة قبل كل شيء».

البحث عن الحقيقة

وتضيف ريبيكا: أعرف من التجربة الشخصية أن المخبر الشخصي ليس بالوظيفة السهلة. وعندما يحين الوقت الذي يتصل فيه العميل بنا يكون قد استنفد الأماكن التي طاف حولها وأصبح يريد أجوبة، فكم مؤلم ذلك. في كثير من الحالات، وخاصة مع قضايا الخيانة، غالباً ما يربطون أنفسهم بوثائق لمدة شهور.

وفي بعض الأحيان نستطيع دحض مخاوفهم السيئة. فقد تابعنا أناساً كانوا أبعد ما يكونون عن وجود حبيب في حياتهم، بل هم مجرد مدمنان ألعاب رياضية سراً أو أنهم مجرد أشخاص يستمتعون بوقت هادئ وحدهم. وأياً كانت نتيجة القضية، جيدة أم سيئة، فإنها تلبي دائماً حاجة الزبون الذي يبحث عن راحته، لأن الشيء الوحيد الذي يشتركون فيه جميعاً هو أنهم يريدون الحقيقة».

وبالنسبة لريبيكا، فأن العمل في هذا المجال يعني مواجهة علاقات تتشكل عبر الإنترنت أكثر من أي وقت مضى كما أنه وسيلة للالتقاء

بالناس. ووفقاً لأحد الاستطلاعات، فإن نسبة كبيرة من العلاقات العاطفية تبدأ عبر الإنترنت، ومع ذلك فإن مواقع التعارف اشتهرت بكونها ممتلئة بالمتزوجين الذين يدعون أنهم عزاب، أو من أولئك الذين يزعمون أنماط حياة مترفة تجعلهم أكثر جاذبية للطرف المقابل.

وكثيراً ما تم الطلب من وكالة السيدة المخبر للقيام بتحريات عن خلفية الشخص للتأكد من أنه حسن النية. وتوضح ريبيكا: إن سيدة في الثلاثينيات من العمر طلبت التحري عن رجل قالت إنها تعرفت عليه عبر النت، وترغب في مقابلته ولكنها لديها شكوك بخصوص ادعائه أنه مليونير ويمتلك يختين، ومنزلاً في دبي وحراساً شخصيين. وحينما تحركنا وجدنا في الواقع أنه مبرمج كمبيوتر يعمل في شركة صغيرة في جنوب إنجلترا، ويتقاضى راتباً شهرياً بسيطاً. وبعدها أرسلت رسالة جميلة عبر البريد الإلكتروني تشكرني لإنقاذ حياتها من ارتكاب خطأ كبير.

خيانة وشكوك

وتكشف ريبيكا: لقد أمسكنا بمئات الأزواج والزوجات المتلبسين بخياناتهم الزوجية، بما في ذلك مدير شركة مع عشيقته في مكتبه. لقد دفعت لنا زبونة ثرية 5 آلاف جنيه إسترليني لتغطية تكاليف بقائنا لعدة ليالٍ في الفندق الراقي نفسه الذي يسكن فيه زوجها في لندن، لأنها كانت مقتنعة بأنه يخونها، حيث كان الزوج تاجر ألماس معروفاً دولياً، وبالرغم من ملاحقته باستمرار بواسطة مخبرينا، إلا أنه لم يكن يفعل شيئاً أكثر من الاستمتاع بوحدته، بما في ذلك الذهاب في نزهة طويلة لشراء صحيفة والتسوق من محلات هارودز.

وتقول ريبيكا: أما أغرب مهمة فكانت حينما استأجَرَنا شاب هربت زوجته مع رجل آخر، وقد سرقت عدة آلاف من الجنيهات من حسابه المصرفي المشترك وحيوانه الأليف (النمس) الذي يحبه. وقال لنا: «لا تهمني هي، ولا يهمني المال، أريدها فقط أن تعيد النمس».

وتضيف: «في شهر واحد استقبلنا ثلاث حالات يشتبه فيها العملاء باستخدام عقاراتهم كبيوت للدعارة. وفندنا صحة إحدى القضايا فيما تثبتنا من الأخرى ومازلنا نعمل في القضية الأخيرة». وتوضح: لدينا كل أنواع العملاء، فهناك عميل أراد الحصول على أدلة فوتوغرافية من صديق شقيقته تثبت أنه يقوم بما هو سيئ بحقها حتى يلقنه درساً لا ينساه لأنه لا يطيقه. وهناك أيضاً قضايا مؤلمة بشكل لا يصدق، فقد استأجرتنا سيدة جميلة بعد وفاة ابنتها البالغة من العمر 12 عاما لأن تلك الفاجعة دمرت حياتها حيث انهار زواجها ووجد زوجها عزاءه بخليلة.

وتقول ريبيكا: من بين القصص الظريفة أن رجلاً في الأربعينيات كان يريد منا معرفة مكان الفتاة التي أحبها في المدرسة الثانوية حتى يتمكن من إجراء اتصالات بها لكي يقول لها إنه لا يزال يحتفظ بذكراها، ولكن للأسف، عندما تعقبناها وجدنا أنها تعيش حياة زوجية سعيدة. كما أن ريبيكا رفضت قبل مدة وجيزة مهمة عمل لامرأة تتوق للطلاق من زوجها السعودي، الذي كانت متأكدة من أنه يخونها وهو ما يجعله تحت طائلة القانون السعودي وقد طلبت منها السيدة أن تذهب إلى السعودية لتضعه تحت المراقبة لكنها رفضت طلبها لصعوبة ذهابها وخطورة المهمة.

مشاهير أو أغنياء

العديد من زبائن ريبيكا هم من المشاهير أو الأغنياء على وجه التحديد حيث تقول: «إن بعضاً من عملائنا السابقين من بينهم كبار نجوم الرياضة الذين يعرفون بوجود خيانة من الأزواج ولكنهم يحتاجون إلى أدلة دامغة قبل البدء بإجراءات الطلاق حتى يتمكنوا من حماية أصولهم المالية».

وتضحك حينما تقول: هل منحت زوجة لاعب كرة قدم، استأجرتنا لخدماتها في شيشاير، زوجها البطاقة الحمراء بعد أن شاهدت لقطاته وهو يتودد إلى امرأة أخرى؟ «أعرف أنها لا تزال معه، ففي كثير من الأحيان يريدون معرفة الحقيقة ببساطة، وبعد ذلك يجدون الوسيلة لمواصلة حياتهم وكأن شيئاً لم يكن». وتضيف: «لقد أخبرت زملائي أنه إذا واجهنا يوماً راكداً فينبغي علينا فقط الذهاب وتعقب عدد من لاعبي كرة القدم». وبما أن تليفون ريبيكا كان يرن طوال هذه المقابلة، فمن المستبعد أن تواجه الكثير من الأيام الراكدة قريباً.

***

ابـــنـة الـقـــرود

أنتجت قناة ناشيونال جيوغرافيك فيلماً وثائقياً كاملاً، كلفها ميزانية ضخمة وحمل عنوان: «المرأة التي ربّتها القرود»، تناولت فيه قصة ربة منزل من «يوركشاير»، من مواليد 1950 وتدعى «مارينا تشابمان». وتزعم هذه المرأة أنها قضت خمس سنوات في طفولتها مع مجموعة من القرود في كولومبيا. ونظراً لأن مثل هذه القصة قد لا يصدقها الكثيرون لكن هذه المرأة وعبر الفيلم المذكور تروي حقيقة حياة الغاب التي عاشتها من خلال قيام كادر الفيلم المذكور وصحفيين بتعقب خطاها بالذهاب إلى المكان الذي عاشت فيه بكولومبيا.

وحينما وصل الجميع إلى عمق الغابات الكولومبية الرطبة المليئة بأسراب البعوض، التي كانت تحاصرهم كسحابة سوداء سميكة، ومع درجة حرارة وصلت إلى أكثر من 35 مئوية في الظل، كانت تلك المرأة الستينية تتقدمهم بخطواتها الثابتة، نحو عالمها القديم وهي ممتلئة بالطاقة والحماس. كانت «مارينا تشابمان» تقفز برشاقة فوق أغصان الأشجار المتساقطة فيما يمر البط من تحت الفريق المرافق، ولا تتوقف إلا لإحداث صوت صراخ غريب. وفجأة دبت الحياة في الغابات المطيرة حينما برزت من بين أوراق الشجر الكثيفة وجوه القردة البيضاء، التي كانت أجسادها تتقافز من قمم الأشجار إلى الأسفل.

وتهمس العجوز مارينا قائلة: ها هي القردة، جاءت هنا لرؤيتي. إنها تعرف أني عدت إلى المنزل.

حكاية مذهلة

إن القصة المذهلة للجدة البريطانية، التي تدعي أن القرود ربّتها في غابة من غابات كولومبيا بعد اختطافها، حينما كانت طفلة صغيرة أثارت العالم بعد أن نشرتها في كتاب «الفتاة التي بلا اسم»، والذي حقق مبيعات كبيرة. وفي محاولة للإجابة عن سؤال ما إذا كانت قصتها صحيحة أم لا؟ قامت صحيفة بريطانية وطاقم فيلم وثائقي بمرافقة «مارينا تشابمان» في رحلة رائعة لمسافة خمسة آلاف ميل من منزلها في ويست يوركشاير إلى واحدة من أكثر الأماكن النائية والخطيرة والقاسية على هذا الكوكب. وانضمت ابنتها فانيسا جيمس ذات الـ 29 عاماً، وهي ملحنة ومقرها لندن، إلى الرحلة التي وصفتها مارينا بـأنها «أعنف مغامرة حتى الآن».

حاولت مارينا أن تثبت للنقاد الذين وصفوا قصتها بأنها من نسج خيالها «الحالم والمخادع» بأن تفاصيلها حقيقية. وبالطبع لا يمكن لأي من القرود التي تزعم مارينا أنها ربّتها أن تكون على قيد الحياة، لأن العمر الافتراضي للقردة حوالي 25 عاماً في البرية، ولكن هل استطاعت مارينا إقامة علاقة صداقة معها حقاً؟ وهل تمكنت من الاقتراب من مخلوقات الغابات المطيرة وبالتالي فهمها، وهي القادمة من عالم البشر المختلف في طباعه عن باقي المخلوقات؟ هذا ما أجاب عنه الفيلم.

اقتفاء الأثر

تعد الغابات الكولومبية النائية، من الأماكن القليلة على وجه الأرض، التي لا تزال موطناً للقردة البيضاء التي تعتقد مارينا أنها تبنتها حينما كان عمرها ما بين الخامسة وحتى العاشرة. وشملت الرحلة إلى هناك ركوب طائرات وحافلات وشاحنات وقوارب لاسيما في الميلين الأخيرين من الرحلة، اللذين كانا مليئين بالمطبات، وصولاً إلى رحلة عبر رافد نهري صغير بواسطة أحد الزوارق المتهالكة في نهر ماجدالينا في كولومبيا.

لم تتزعزع مارينا عن قصتها، فهي تصر على أنها ولدت في أوائل الخمسينيات في وقت كانت كولومبيا في منتصف حرب أهلية وحشية اختطفت خلالها عصابات الاتجار مئات الأطفال. وتتذكر أنها اختطفت من حديقة عائلتها الريفية من قبل رجلين أخذاها إلى أعماق الغابة ثم تخليا عنها هناك. وتدعي أيضاً أن قروداً بيضاء صادقتها وعلّمتها كيفية جمع قوتها فضلاً عن الفواكه والمكسّرات، كما قادتها القرود إلى مياه شرب مأمونة. وتعلّمت كيفية الإمساك بالطيور والأرانب بيديها العاريتين.

العودة للقرود

وتقول مارينا حينما كانت تجلس مع فريق العمل في خيمة على حافة الغابات المطيرة ذات ليلة: إن علاقتي بتلك الحيوانات حقيقية، لقد تقبلتني فرداً ضمن قطعانها، وأنقذت حياتي. وكان حلمي دائماً أن أعود إلى الغابة هنا في كولومبيا، لأرى القرود مرة أخرى. نعم أحب زوجي، وأحب عائلتي، ولكن لن أتوقف عن محبة القرود، إنها عائلتي الحقيقية

ولولاها لما كنت حيّة، عندما أفكر فيها أحبها أكثر، إن وجوه القردة تمر على الدوام في ذهني، لقد انتظرت 50 عاماً من أجل العودة إلى هنا لأراها.

اختبارات الكذب

لقد بدأت رحلة عودة مارينا إلى «الوطن» من العاصمة الكولومبية، بوجوتا مع طاقم عمل سينمائي من قناة ناشيونال جيوغرافيك، وأجريت لمارينا مجموعة اختبارات لمعرفة ما إذا كان هناك دليل بيولوجي للحكاية البريّة، وتضمن أحد هذه الاختبارات تحليلاً لعظام مارينا، وبشكل لا يصدق اكتشف العلماء أن الهيكل العظمي لمارينا أظهر علامات سوء تغذية حاد حينما كانت ما بين السادسة والعاشرة ما أدى إلى توقف نموها، وهو نفس الوقت المحدّد الذي تدعي فيه أنها عاشت مع القرود.

وأجري لها اختبار آخر، مشابه لاختبار كشف الكذب، وقد أثبت أن دماغ مارينا سجّل صورًا باللاوعي للقرود البيضاء بنفس قوة شعورها مع صور من أعضاء عائلتها، الأمر الذي من المستحيل أن يكون غير صحيح.

الزواج بعالم أحياء

وبحسب ما تقوله مارينا فإنها تركت القرود والغابة بعد أن عثر عليها مجموعة من الصيّادين وباعوها في مدينة كوكوتا، ومن ثم استطاعت الهرب من العائلة التي اشترتها. وقد أمضت سنوات في الشوارع، وأحياناً كان يتم القبض عليها، ولكن في نهاية المطاف أنقذتها عائلة في كولومبيا

لتعمل عندها كخادمة حتى سن المراهقة، وتمكنت في وقت لاحق، خلال منتصف العشرينيات من عمرها، من السفر مع عائلة إلى بريطانيا.

وكانت هذه العائلة قد ذهبت إلى الإقامة في «برادفورد» لمدة ستة أشهر لإتمام بعض الأعمال التجارية، وفي ذلك الوقت التقت مارينا بزوجها جون تشابمان الذي كان عمره (29 عامًا) وهو عالم وباحث في البكتيريا وتزوجا في عام 1977 ولم يفترقا أبداً وكانت تحت رعايتهما ابنتان.

وتقول ابنتها فانيسا التي شجّعت والدتها على نشر قصتها في كتاب: لقد نشأت وأنا أعتقد أن كل أم تروي في العادة حكايات لأبنائها عن نشأتها في الغابة مع القردة، ولم أكتشف الحقيقة إلا بعد أن كبرت في السن. وتضيف: لقد نشأت مع أم تقلّد أصوات القردة وتتسلّق الأشجار.

«فتـــاة بلا اســم»

وها هي اليوم مارينا تثبت حقيقة قصتها التي تحوّلت إلى كتاب «الفتاة التي بلا اسم» والذي بيعت منه آلاف النسخ في 7 بلدان، وهناك الفيلم الوثائقي الذي يؤكد ما ذهبت له مارينا، خصوصاً أن عدة أجزاء من قصتها بعد مغادرة الغابة قد تم التحقق منها. كما أن صنّاع الفيلم استأجروا عيوناً خاصة لتعقب الأسرة التي عاشت معها مارينا بعد أن أُخذت من قبل الصيادين. وبالفعل فقد تذكرت تلك الأسرة «مارينا» حينما كانت طفلة وكيف أنها أخبرتهم عن سنواتها التي عاشتها مع القرود في الغابة.

ويقول أحد منفذي الفيلم: «لا أعتقد أنها خدعة ولكننا اكتشفنا حقيقة الكثير من الأمور التي ألقت بظلال من الشك على قصة مارينا. وبحسب رأيي أنها عاشت في مكان ما على حافة الغابة مع القردة الذين اعتادوا على إظهار اللطف معها لأنها كانت تعيش مرحلة طفولة مؤلمة». وحينما كانت مارينا تستعد لمغادرة كولومبيا، قالت: «من يريد أن يُصدّق قصتي سيفعل ومن لا يريد أن يُصدّق فليفعل لكني أتذكر القرود وكيف أحبتني وتقبّلتني في أسرتها وأنا أدرك أنني أقول الحقيقة».

***

فهرس المحتويات

إهـــداء 5

مقدمة المترجم 7

مشردة وملهمة للجماهير 11

بـطـلة بـذراع واحـدة 19

الـمـمـثـلة الـصـماء 25

خبيرة تنويم مغناطيسي روائية 33

زهـــرة الصحراء 41

ضريرة تطوف العالم بدراجة 49

الـمـجرمـة الـواعـظة 57

جنرالة ومظلية من أفغانستان 67

من مرشحة رئاسة إلى مختطفة 77

ابـنـة دكـتـاتـوريـن 87

أصغـر بحارة تطوف العالم 95

جين أوستن البغدادية 103
دماغها امرأة غيـّرت 113
غـجـريـة وروائية 121
جـاسـوسـة المـشاهير 129
ابــنـة الـقــرود 137